نصفي الذي يرى

نصفي الذي يرى
عزة مصطفى/ أدب رسائل
الطبعة الأولى: ٢٠٢١

تصنيف الكتاب: رواية

ISBN:
رقم الإيداع:

الوردة للنشر والتوزيع
القاهرة – مصر
info@daralwarda.com

دار الوردة

عزة مصطفى

نصفي الذي يرى

دار الوردة

منها..
وإليها..
مَن علمتني نبض الكلمات

مقدمة

كنت أرتب صندوق ذكرياتي.. أحجيتي؛ صور الجامعة، علب صغيرة لهدايا بسيطة، كروت أعياد ميلاد من صديقاتي، أربطة شعر ملونة كانت تخص طفولتي، قارورة عطر فارغة، وأوراق كثيرة؛ قررت أن أصنف الأوراق بحسب نوعها وحجمها ما بين كتاباتي الأولى، وما بين رسائل الأصدقاء. وبعد أن انتهيت وجدت كمًّا كبيراً من الرسائل من صديقتي أمل كتبتها في الفترة التي قضتها في المدينة الجامعية في القاهرة أثناء دراستها في كلية دار علوم.

نفضت الغبار عن الرسائل وولجت داخلها، ولم أشعر بالغيمة التي تطل من شُرفتي وتغطي وجه القمر، ولا بالباب الذي يُفتح بيد شهرزاد لتُطِلّ

برأسها على حجرتي بعد غيبة سنوات، ووجدتني أنثر الرسائل حولي.. أخلع عباءات الشيخوخة، وأعود بالسنوات للخلف؛ زمن ينسلخ مني أو أنسلخ منه، بنت تعشق الحكايات ولا تنام إلا بعد أن تُنهي قراءة قصة جديدة، أو تندس وسط مجالس النساء والعجائز لتسمع القصص المنسية التي تولد وتموت معهن حيث لا أحد يعرفها لكني ألتقطها من أفواههن وأدوِّنها في ذاكرتي ربما أعود إليها يومًا وأنسج منها رواية تليق بعمق تجاربهن.

اقتربَتْ شهرزاد وجلست بجواري، أشعر بحرارة جسدها تلتحم ببرودة جسدي الذي ينهمر منه العرق أنهارًا كأني عدت للتو من سباقٍ للركض، ركضي مسافة عشرين عامًا هي عمر ابنِي، وعمر القضبان التي وضعتُها حول شهرزاد كي لا تنفلت وتذكِّرني بموعد القصة الجديدة فأغفل معها الطعام الذي تركته ينضج على النار، أو أنسى موعد عودة ابني من المدرسة، لم أتركها تشغلني عن دوري الأمومي.. لكنها فجأة، وبعد كل تلك السنوات تفتح بابي وتستعيد معي تلك الرسائل المنسية

في زمـن منـسي. كانـت تكتبهـا أمـل كي تُبقينـي عـلى قيـد الحكايـات كي لا أنفـذ منهـا وأتبخـر في حـاضرٍ مُوجـع. كانـت تكتـب كأنهـا تتعـرى أمامـي، تكشـف كل أسرارهـا التـي لم أطّلـع عليهـا مـن قبـل ولم يعرفهـا ثمـة أحـدٍ مـن بَعـد.

تلـك الرسـائل كنـت أنتظرهـا بشـغف؛ فهـي الـشيء الوحيـد الـذي شـغلني عـن مـرض أمـي، وعـن صدمـة إجهـاضي، وصدمـة احتـكاكي مـع عـالمٍ مُغايـر لـكل توقعـاتي.. تلـك الرسـائل كتبتهـا أمـل كفتـاةٍ وحيـدة تـدوِّن صـدى صرختهـا التـي لم يتلقفهـا أحـدٌ سـواي.. فهـي تعـرف أنهـا صديقتـي الوحيـدة التـي لا أثـق سـوى بهـا.

ربمـا يتعجـب أحـدٌ أن كيـف أصـل إلى هـذا العمـر وليـس لي سـوى صديقـة وحيـدة لا زلـت أحتفـظ برسـائلها وبـكل ذكريـاتي معهـا؛ سـأترك شـهرزاد تخبركـم بالحقيقـة، تنتبـه شـهرزاد بعـد أن سـمعت اسـمها يـتردد عـلى شـفتي كأنهـا انتبهـت مـن سـباتٍ عميـقٍ وأخـذت تتحـدث:

«الحقيقة، أنه لا توجد حقيقة تستحق أن تسعى خلفها؛ فالقصة مُعَادة ومكررة لدرجة الملل، كان لها صديقة وكانت تحبها حبًّا شديدًا فهي صديقة الطفولة والمدرسة وكاتبتنا مخلصة أحبَّتْ صديقتها بلا حدود وأطلعتها على كل ما كتبته وحكيته أنا على لساني لسيدي وحبيبي شهريار لكنها خانتها وارتدت قناع القصص التي سهرت الليالي وهي تنسج حبكتها وتروض أبطالها، وبعد كل ذلك نسبت تلك الصديقة لنفسها حصاد السنين، ولم يعد من السهل الثقة في أحد، كل الأصدقاء أصبحوا خونة كل الرفقاء أصبحوا لصوص، ظلت تغربل كل الأصدقاء ولم يتبق في جعبتنا سوى صديقتنا صاحبة الرسائل.»

عادت شهرزاد لتجلس إلى جانبي وتعبث في الرسائل، فأذنت لها أن تقرأها بصوتها الحنون الذي روَّدت به شهريار، فأخذني الحنين إلى ذلك الزمن البعيد، ووضعت رأسي على الوسادة تاركة أذني معها قبل أن يداعب النوم عيني فأعود إلى بيت أبي ممسكة بالرسالة بين يدي وأقرأ...

الرسالة الأولى

عزيزتي عزة،

هـذا هـو اليـوم الأول الـذي أفـترق فيـه عنـك، اليوم الأول الـذي أبعـد فيـه عـن بيتنـا، اليـوم الـذي غـادرت فيـه مدينتـي الحبيبـة بنـي سـويف وجئـت إلى القاهـرة.

رحلـة بـدأت حـين وضعـت قدمـي في القطـار وأفسـحت لنفـسي مكانًـا بقـدر موضـع قدمـي بـين الجثـث المتلاصقـة التـي تنبعـث منهـا رائحـة العـرق اللـزج في رحلـة يقطعونهـا منـذ سـاعات مـن جنـوب الصعيـد إلى القاهـرة في قطـار الدرجـة الثالثـة الـذي يتوقـف في كل محطـة ومركـز ليفـرغ حمـولات ويشـحن حمـولات بشريـة، أجسـاد تلهـث وراء أقواتهـا لا تعبـأ بمـن ألقـت بجثتهـا نحـوه أو عليـه أو فوقـه أو زحزحتـه واحتلـت مكانـه؛ فالموقـف بالنسـبة لهـا مجـرد مواصلـة سـتنتهي بتوقـف القطـار.

أحمل حقيبتي في يدي وحُلمًا في قلبي، وحدُكِ من تعرفين كم عانيت حتى وصلت إلى هنا في هذا اليوم، لكني دائمًا أحب سرد القصة من جديد كأنك لم تسمعيها أو تعرفيها من قبل، سأحكيها لك مرة أخيرة كي أذكِّر نفسي بالهدف الذي جئت من أجله.

كنا كومًا من اللحم أنا وإخوتي، وأبي لا يملك سوى راتب الوظيفة الميري كعسكري خدمة في شرطة الآثار.. كوم من اللحم يأكلون ويلبسون ويتعلمون من راتبٍ لا يكاد يكفي فردًا واحدًا، فكرة التعليم نفسها كانت رفاهية بالنسبة لنا لكن حب أبي لجمال عبد الناصر دفعه إلى تشجيعنا على التعليم؛ فهو يراه البطل الذي وفر مجانية التعليم للفقراء أمثالنا ولن يكلفه لا أبيض ولا أسود.. واكتفت أخواتي البنات بالشهادة المتوسطة أما أخي الوحيد فاختصر الطريق وخرج من المدرسة يبحث عن مهنة تجلب له الرزق السريع.

أنهيت مثل أخواتي تعليمي المتوسط بمدرسة الثانوية الفنية فأنتِ تعلمين حبي للرسم والزخرفة،

لكــن طموحــي لم يشــبعه الألــوان أو النقــوش وكان كل أمــلي أن أحصــل عــلى الثانويــة العامــة. بحثــت في منطقــة درب المــلاح عــن طالبــة أو طالــب حصــلَ عــلى الثانويــة العامــة حتــى عــثرت عــلى زينــب التــي أصبحــت فيــما بعــد مــن أعــز صديقــاتي، ســألتها حينها عــن تفاصيــل التفاصيــل في كل مــا يخــص الثانويــة العامــة ســواء المناهــج أو الــدروس والمدرســين أو نمــاذج الامتحــان، وبعــد أن عرفــت كل شيء قدمــت أوراقــي في مدرســة الثانويــة بنــات وبــدأت رحلــة الدراســة مــن المنــزل.

كان عــليَّ أن أعتمــد عــلى نفــسي؛ لأن أبي لــن يســتطيع تحمُّــل رفاهيــة طموحــي، هــل تعرفــين عــدد الســاعات التــي جلســت فيهــا لألخِّــص مــادة التاريــخ، وكــم المحــاولات التــي حاولــت فيهــا فَهــم قاعــدة في اللغــة الأجنبيــة؛ ففــي مدرســة الفنيــة لم نــدرس مــن الإنجليــزي ســوى كلــمات بســيطة نتفاخــر بهــا أمــام الســياح لنســألهم عــن أســمائهم أو أحوالهــم، فيــما عدا ذلــك لم يجــدوا مــن تدريــس اللغــة الأجنبيــة فائــدة لطالبــات لــن يحتجــن إليهــا في شيء.. ثــلاث ســنوات

مـن الكفـاح اسـتطعت خلالهـا إنجـاز أول خطـوة في الحُلـم وحصلـت عـلى المجمـوع الـذي تمنيتـه.

جادلتِنـي كثـيراً كي لا ألتحـق بكليـة دار العلـوم اعترضـتِ قائلـة: "كليـة صعبـة هتاخـدك مـن الدنيـا".. الدنيـا ياعزيـزتي التـي لم أعشـها! سـأقول لـك فيـما بعـد أن الدنيـا لا تفتـح ذراعيهـا لأمثـالي، لكـن دعينـي أخـبرك عـن أول يـومٍ لي في القاهـرة؛ كان حلـم مـن أحلامـي أن أزور القاهـرة في زيـارة خاطفـة أو ألقـي عليهـا نظـرة مـن شـباك قطـار عابـر، ورغـم إقامـة عمتـي في القاهـرة إلا إني لم أزُرهـا ولـو لمـرة واحـدة بسـبب تواجدهـا معنـا في بنـي سـويف عـلى الـدوام.

أخـيراً هـا أنـا في القاهـرة؛ قاهـرة المعـز التـي درسـناها في كتـب الدراسـات.. قاهـرة الصخـب والزحـام.. لوحـات إعلانـات.. سـيارات وأتوبيسـات.. أنـاس مـن كل الجنسـيات ومـن كل البـلاد؛ مقـاهٍ لكافـة الفئـات، مثقفـين وحرافيـش وعُـمَّال وبهـوات.. قصـور الثقافـة.. الأوبـرا.. منتديـات الأدب ونـدوات شـعر.. معـارض الفـن.. عـروض مسرحيـة.. سـور الأزبكية..كتـب في كل مـكان.. قاهـرة ثلاثيـة نجيـب

محفـوظ ورباعيـات صـلاح جاهـين وأغـاني الشـيخ إمـام.

هـل تذكريـن آخـر مـرة سـمعنا فيهـا الشـيخ إمـام عنـدك مـن حفـل مسـجل مـن كلـمات أحمـد فـؤاد نجـم:

«مصر يا أمَّا يا بهية

يا أُم طرحة وجلابية

الزمن شاب وانتي شابة

هو رايح وانتي جاية»

أنـت لا تعلمـين يـا عـزة أن كلـمات هـذه الأغنيـة هـي التـي دفعتنـي إلى الكتابـة، سـأروي لـك فيـما بعد عـن هـذه الواقعـة فأنـا الآن في القاهـرة. بعـد وصـولي تلفـتُّ حـولي ولم أصـدق أن الحلـم تحقـق وأننـي سـأقضي فيهـا أربـع سـنوات مـن عمـري.

عندمـا دخلـت المدينـة الجامعيـة شـعرت بفرحـة يـوم العيـد، وأول مـرة خرجـت فيهـا مـع أبي لـشراء ملابـس المدرسـة، وأول مـرة ذهبـت فيهـا لقـصر

الثقافــة لإلقــاء قصيــدة.

واســعة شــوارع المدينــة، وعاليــة مبــاني الســكن. تخطيــت الأمــن بعــد أن ســألتهم عــن مبنــى الإدارة، أشــار لي العســكري إلى مبنــى تجــاه اليمــين "روحــي لأبلــة فاطمــة" قطعــت المســافة في بضــع خطــوات، طرقــت البــاب بوجــل "البــاب مفتــوح" قالتهــا لي العاملــة. دفعــت البــاب بحــذرٍ مــا إن رأتنــي أبلــة فاطمة حتــى قالــت بصوتهــا الجهــوري "المســتجدين يروحــوا لأبلــة منــال". لم تكلفنــي جهــد الحديــث والســؤال.

سرت في الممــر الضيــق المظلــم رغــم نور الشــمس الــذي يغمــر المبنــى مــن الخــارج، الرطوبــة تنبعــث من بــلاط الــدور الأرضي، أشــعر بهــا مــن تحــت الحــذاء تتغلغــل إلى قلبــي فــيراودني شــعور غريــب بــأن زمــن مــن الــبرودة قــادم لكنــي أخبــئ ذلــك الشــعور خلــف فرحــة غامضــة تمــلأ روحــي، طرقــت بابًــا آخــر لم أجــد مــن يفتــح لي ســوى صــوت ضعيــف ينبعــث مــن الداخــل:

«اتفضل.»

فتحت الباب ونظرت من الشق المفتوح فقالت:

«تعالي.»

بصمتٍ قدمت لها أوراقي، نقلت بصرها ما بين وجهي وبين الأوراق ثم قالت بامتعاض:

«حالة صحية!»

قلت بغباء أو لعلها براءة:

«أنا طالبة مستجدة جئت من محافظة بني سويف.»

«ما أنا عارفة أنا قصدي إنك هتقعدي في دور المعوقين.»

كأنها ألقت في وجهي قطعًا من الثلج في نهار شتائي بارد؛ ماذا تعني بالـ «معوقين» أول مرة أسمع فيها تلك الكلمة لم يقُلها لي أبي، ولم أطالب بأن أجلس في المقعد الأول كي أرى السبورة جيدًا.. لم أتغيب ولو ليوم عن المدرسة وأتحجج بأني لا أملك سوى عين واحدة، لم يخبرني أحد من قبل بأنني من المعوقين!

خطت بالقلم بسرعة على الورق وقالت:

«مبنى ٣ الدور الأول عند المشرفة سحر.»

حملت أوراقي وخرجت من الحجرة التي شعرت فجأة بأنها ضيقة تكاد تطبق على أنفاسي. لم تخبرني أمي كيف أصبحت من المعوقين، عندما سألتها عن عيني المفقودة لم تعطني إجابة مقنعة؛ فمرة تقول لي إنها عيون الجارات الحسودة، ومرة تقول كتكوت نط فوق رأسك وأنت بنت ست شهور ونقر عينك، ومرة أخرى تقول لقد جرحت عينك بإصبع يدك وأنت صغيرة.

بالطبع لن أعرف أي الروايات أصح لأني كنت لا أعي من الدنيا الألم.. لكن ما أعرفه وأتذكره جيدًا تلك المشاوير التي كانت تصحبني فيها إلى مزين الحي كي يداوي عيني ويضع فيها ما لا أعرف له اسمًا أو لعلي أدمنت اسم «التوتيا الزرقاء»، شيء يشبه إدمان الألم؛ فهي قطرات تشبه ماء النار تلهب عيني فأصرخ من شدة الألم، لم تكن مرة واحدة بل كان لنا جلسات أسبوعية حتى

انطفأ نور العين اليسرى وضمر حجمها في وجهي، يومها اكتفت من تلك المشاوير أو لعلها استراحت وتفرغت لخدمة البيت.

عرفت فيما بعد عندما شاهدت مسلسل «الأيام» أن ثمة علاقة بيني وبين طه حسين، وأنه فقد عينيه الاثنتين بسبب الجهل والتخلف، لكني كنت محظوظة؛ فقد بقيت لي واحدة لأشاهد بها التليفزيون، وأقرأ بها وأذاكر بها، وأكتب بها، وأخيراً أعمل خياطة لأوفر مصاريف تعليمي الجامعي.

نعم أنا بعين واحدة عندما ذهبت إلى المدرسة لأول مرة مالت على البنت التي جلست بجواري وهمست في أذني بخوف: "هو أنت شايفة نصي بس يعني شايفة عين واحدة وإيد واحدة ورجل واحدة؟ "نظرت لها ببراءة وود ونفيت كلامها، كمن يشرح لتلميذ غبي مسألة صعبة شرحت لها إنني أراها كاملة، وإنني أستطيع أن أستدير برأسي لأرى كل شيء كما هو، عرفت وقتها أنني يجب أن أحافظ على رأسي كاملة كي أستدير يمين وشمال

كأريـل يلتقطـت إشـارات القنـوات الفضائيـة.

كانـت هـذه هـي المـرة الأولى التـي أعـرف فيهـا أن تصنيفـي مـن المعاقـين، ظـل أبي طيلـة حياتـه يقنعنـي بأننـي طبيعيـة لا ينقصنـي شيء، وإننـي لا أختلـف عـن إخـواتي سـوى في حدة الـذكاء؛ فأنـا أذكاهـم وأفضلهم في الفهـم والتحصيـل لكـن كنت أشـعر بغصـة في قلب أمـي كلـما نظـرت إليَّ، وكان لا بـد أن تخفـي حسرتهـا كي لا أسـألها سـؤالي المتكـرر:

«هو أنا عيني ضاعت إزاي؟»

أصرت أن تبعـدني عـن الجـارات حتـى لا أسـمع عبـارات الشـفقة عـلى شـاكلة "يـا عينـي دي وليـة هتتجـوز إزاي وهـي كـده»، وأمـي تظن إنني لا أسـمعها لكنـي كنـت أسـمعها مـن خلـف بـاب حجـرتي وهـي تبـوح بحزنهـا عـليَّ لجارتنـا أم مصطفـى وتمسـح دمعة مارقـة عـلى عجالـة كي لا يلمحهـا أبي ويلقـي اللـوم عـلى كاهلهـا "مـا انتـي السـبب في الـلي حصـل" هـي لا تحـب أن تكـون السـبب في أي مشـكلة تحـدث ولا تحـب اتهـام أبي لهـا بالتقصـير ولا تريـد أن تواجـه

تأنيب الضمير.

عرفت منذ ذلك الوقت أن التي لا تملك سوى عين واحدة لا تصلح للزواج؛ لأن الرجال لا يحبون النساء اللائي ينقصن شيء من أبدانهن. أعرف إنك وأنتِ تقرئين الرسالة الآن تفتحين فمك بدهشة وتقولين "هو انتي عبيطة دي العامية بتتجوز"، لم يعد الزواج هدفي لا أريد سوى أن أحقق حلمي بالحصول على شهادة جامعية وأن أدرس اللغة العربية لأجيد كتابة الشعر. أنا مدينة للشعر لأنه كان سببًا في معرفتي بك، كنت أرتاد نادي الأدب في قصر الثقافة قبلك بسنوات. كان جميع الأدباء يشجعونني؛ فهذه هي أول مرة تظهر فيها شاعرة في بني سويف فلا يتركون ندوة أو مهرجان شعر يمر بدوني.. ثم حدث أن تغيبت مرة عن اللقاء الأسبوعي الذي حضرتِه أنتِ وأبهرتِهم بقصتك الأولى، وظلوا منبهرين لأسبوع كامل حتى ذهبت في الأسبوع التالي ورأيتك.

في اللحظة التي وقعت فيها عيني عليك غمرني شعور بأنك ابنتي لا أدري ما سر ذلك الشعور ربما

لأنك تصغرينني بسنوات، أو ربما لأنك جديدة بيننا؛ فأردت أن أبث في نفسك الطمأنينة، هو شعور يتعمق داخلي كل يوم، وجهك الطفولي يذكِّرني بطفولتي التي لم أعشها، الحزن الدفين الذي في عينيك يحرك حزني القديم على عيني التي فقدتها قسرًا.

وأمي لم تقل لي ولم تخبرني مسبقًا إنها عندما تنجبني ستضحي بعيني من أجل خدمة البيت الذي لم تستطع الغياب عنه للذهاب بي إلى المستشفى الحكومي؛ المكان الوحيد الذي يذهب إليه الفقراء أمثالنا لتلقي العلاج المجاني فيقفون في طوابير متراصين بجوار بعضهم البعض كجدارٍ عازل كي يستطيعوا في النهاية الدخول إلى حجرة طبيب امتياز من الممكن أن يكتب لهم علاجًا بالخطأ.

«ياخسارة الحلو ما يكملش" ظلت هذه الجملة تلاحقني من نسوة العائلة اللواتي يأتين من القرية لزيارتنا، هل أنا جميلة كما يدعي الجميع؟ وهل هذه العين نقص فيَّ؟ لم يتعمق داخلي هذا الشعور إلا اليوم.

وصلت بعد عناء مع الذكريات إلى مبنى ٣ الدور الأول مسكن المعوقات، لن أحكي لك ما رأيته في هذا المبنى، أعرف أن قلبك الرقيق لن يحتمل، وربما لو تخيلتِ المشهد لجلست تبكين لأيامٍ لكن يكفي أن تعرفي أنني شعرت بأنني السليمة الوحيدة بينهن وأن تلك العين لا شيء يُذكَر أمام إعاقتهن.. عرفت وقتها لماذا لم يذكر أي أحد أمامي من قبل أنني معاقة لكن وجودي في مبنى ٣ الدور الأول سيعمق داخلي شعور إنني معاقة بالفعل.

مضى النهار وأنا أرتب حجرتي وأنظم أدواتي، وأعرف حدودي في الغرفة التي تشاركني فيها طالبة من كلية الحقوق وأنا أتلقى تلميحات منها بالتزام الهدوء؛ لأن دراستها صعبة وتحتاج إلى تركيز فكان عليَّ أن أطمئنها بأنني لست من النوع الذي يميل إلى الضجيج أو يثير المشكلات.

أجلس الآن على سريري هو كل عالمي في القاهرة التي تمنيت عمري كله أن آتي إليها، لا ينقصني فيها سوى شيءٍ واحدٍ هو وجودك معي.. افتقادي إلى ذلك اللقاء الأسبوعي في قصر الثقافة

والزيارات المتبادلة بيننا، وجدت في كتابة الرسائل تعويض عن غيابك عن تلك الأحاديث التي لا تعرفينها عني وعن تلك الأحداث التي أصادفها كل يوم بعيداً عنك، سأكتب إليك كلما احتجت أن أبوح عما يمتلئ به قلبي، وأنت أيضًا اكتبي لي لا تنقطعي عن الكتابة ؛ اكتبي لي ألمك بمرض أمك الدائم.. حزنك على أختك الصغيرة التي ماتت بين يديك.. اكتبي عن وحدتك والصمت الذي يعشش بين جدران حجرتك.

سأنتظر خطاباتك وسأرسل لك خطاباتي.. الكتابة هي الشيء الوحيد الذي يبقينا على قيد الحياة.. هي الترياق لكل سموم المجتمع والأمل الذي نحيا لأجله.

الرسالة الثانية

اليوم هو الأول من أكتوبر ١٩٩٢،

أول يـوم لي في الجامعـة، أعتـبره يوم ميـلادي الثاني، عوضًـا عـن الأول الـذي تبـع النكسـة بشـهرٍ ونصـف، ٤٥ يومًـا ثقـال متتابعـون عـاش فيهـم المصريـون انكسـار الهزيمـة.. حـزن الفقـد.. حـداد الشـهداء.. ألم ضيـاع سـيناء.. فـوضى الغضـب الشـعبي مـن عـدم إنجـاز الوعـود.

قـولي لي ياعـزة، أنـتِ أكـثر قـراءة منـي في التاريـخ، هـل هـذه هـي الهزيمـة الأولى التـي لحقـت بالشـعب المـصري؟ هـل لم نُهـزم مـن قبـل؟ هـل يُعتـبر الاحتـلال الفرنـسي هزيمـة ثـم تبعـه الاحتـلال الإنجليـزي؟ ألم نخـسر فلسـطين في حـرب ٤٨ ثـم سـيناء في ٦٧، ألم يعلِّمونـا في المـدارس أن الجنـدي المـصري هـو خـيرُ أجنـاد الأرض إن كان جنودنـا خـير أجنـاد الأرض فمـن أيـن تـأتي الهزيمـة إن كان الجنـدي

المصري لا يترك ساحة المعركة إلا مقتولاً أو أسيراً فكيف تأتي الهزيمة؟!

أعرف يا عزة ما ترددينه دائمًا؛ الخيانة هي سبب الهزيمة، بل هي أصل الهزيمة فلولا خيانة حاشية الملك في حرب ٤٨ لما وصلنا لما نحن فيه، لما كان هناك كيان يُسمى بإسرائيل، لما كانت هذه النكسة التي حمَّلتني جدتي لأبي مسؤوليتها بقولها لي كلما غضبت مني «وشِّك شؤم على البلد كلها»!

دَعنا من الخيانة ومن الهزيمة، فاليوم هو أول يوم لي داخل الحرم الجامعي. عبرت البوابة الكبيرة ووقفت أمام القبة الخضراء، شعرت برهبة المكان، ذكرتني تلك القبة بقبة مسجد «الست حورية» وصخب يوم المولد، كانت أمي تحرص على حضور المولد وإلقاء النذور بين القبضان والشاهد المكسو بالحرير الأخضر، ثم تمسك يدي ونخرج وسط الناس توزع أطباق الفول النابت ليشفيني الله وتعود عيني المفقودة كي لا تخجل أمام نسوة الحارة إذا بقيت لديها بنت عانس بدون زواج؛

حـدث هـذا قبـل أن يقنعهـا أبي بـأن مـا تفعلـه حـرام ولا يجـوز التـبرك بأوليـاء اللـه الصالحـين.

هـي نفـس القُبـة لكنهـم ليسـوا البـشر، هنـاك كان الجهـل يترنـح حـول المسـجد بأمنيـات الفقـراء التـي لم تتحقـق، وهنـا العلـم يرتـدي ثيـاب الفضيلـة.

طلبـة وطالبـات يملـؤون الممـرات، سـيارات تمـر بجـواري ذات مـاركات عالميـة لعلهـا تخـص بعـض الطـلاب الأغنيـاء أو بعـض أسـاتذة الجامعـة الذيـن اسـتطاعوا الحصـول عـلى عقـد عمـل في الخـارج اسـتهلكت سـنوات شـبابهم.

لـن أنظـر إلى حـذائي المتهالـك، فجميعهـم اليـوم يرتـدون أجمـل ثيابهـم كأنـه حفـل تعـارف لا يـوم دراسي، أنـت تعلمـين أننـي لا أهتـم بتلـك الأمـور، قمـت بتفصيـل قطعتـين مـن القـماش سـأكتفي بهـما لهـذا العـام؛ فأنـا لم آتِ كلَّ هـذه المسـافة لأتباهـى بألـوان ملابـسي ولا بنعومـة بـشرتي ولا بتبديـل الأحذية كـما تفعـل بعـض البنـات لتصطـاد عريـس فتخـرج مـن الجامعـة بشـهادة وزيجـة.

بالكاد استطعت توفير (الثلاثين جنيه)؛ قسط أول شهر في المدينة، من عملي بالخياطة طوال شهور الإجازة، وفي الشهر التالي سأطلب من أبي على استحياء أن يسدّ عني ثلاثين جنيهًا، ثلاثون جنيهًا كاملة ربما تُعادِل ربع راتبه الذي تسدده أمي في الجمعيات التي تجهز بها أخوتي البنات، ثلاثون جنيهًا هي قيمة القسط بالتمام، هذا يعني إنه لا فائض للرفاهية؛ رفاهية من نوعية ركوب المواصلات أو شرب كوب من الشاي أو حتى شراء علبة مناديل ورقية، يجب أن أروض نفسي أنني جئت من أجل التعليم فقط والحمد لله يوجد سرير أنام عليه ومكتب للمذاكرة وطعام المدينة كثير رغم تخوف البنات منه، إلا إنني على يقين من أنني سأعتاد عليه كما اعتدت على وجبة الملوخية المجففة التي لا تخلو منها طبليتنا، يصنعها أبي بنفسه قائلاً إنها عادة تربى عليها في بيت جده، كانوا يصنعونها بالشطة والليمون والماء فقط، وما إن يرتشفها بالطبق حتى يشعر بسخونة تجري في دمه، كم تململت أخواتي من تلك

العـادة وتلـك الوجبـة التـي لا تتجـدد حتـى في طريقـة إعدادهـا لكنـي الوحيـدة التـي اعتـدت عليهـا فيترك لي نصـف الطبـق كي أرتشـفه كـما يفعـل دائمًـا.

اكتشـفت ذات مـرة وأنـا أتأمـل وجـه أبي أننـي أكـثر أخـواتي شـبهًا بـه؛ فأخـواتي البنـات الثـلاث يشـبهن أمـي في جمالهـا.. بيـاض بشرتهـا.. شـعرها المسترسـل.. أنفهـا الدقيـق وأسـنانها المصطفـة كعقـد لـولي، أنـا الوحيـدة التـي ورثـت مـن أبي ملامحـه المصريـة الأصيلـة، لا يحتـاج الـرائي لي معـه إلى توضيـح بأننـي ابنتـه.

الآن أعـرف لمـاذا كانـت أمـي تضربنـي في أوقـات غضبهـا منـه لعلهـا ظنـت أنهـا تنتقـم منه في شـخصي، لكنـي لم أتحامـل عليهـا بسـبب عنفهـا معـي، دائمًـا مـا أتلمـس لهـا العـذر فهـي واقعـة تحـت ضغـط الشـقاء وشـدة أم أبي معهـا التـي لا تـترك خطـأ يحـدث إلا وترفـع صوتهـا لتعنفهـا عليـه، وبيـت أبي الـذي ورث جـزءًا كبـيراً منـه عـن أبيـه لا ينظفـه غـير أمـي، بالإضافـة إلى صنـع الخبـز البيتـي لأن جـدتي لا تـأكل خبـز الأفـران، والأهـم مـن كل ذلـك لا تغفـل العنايـة

بالطيـور، فيومهـا يبـدأ مـن الفجـر ولا ينتهـي إلا بعـد زوال الشـمس، بعدهـا تذهـب إلى حجرتهـا جثـة هامـدة.

لم أغضـب منهـا وهـي تضربنـي ولـو لمـرة واحـدة؛ فقـد كنـت أتسـلل خلفهـا بخفـة وهـي تطعـم الطيـور، وأراهـا تبـكي عـليَّ وعـلى نفسـها وعـلى الزمـن القـاسي الـذي أجبرهـا عـلى تحمُّـل كل ذلـك وهـي تـردِّد كلـمات مؤلمـة تشـبه النـواح عـلى المـوتى، كانـت هـذه هـي المـرة الأولى التـي أعـي فيهـا أن الحـزن رفيـق المـوت.

اعذرينـي يـا صديقتـي؛ فأنـا أعـرف أن لا ذنـب لـك في تحمُّـل مثـل هـذه الأحاديـث لكنـي أشـعر أننـي أحـدِّث نفـسي، وفي حاجـة إلى أن أسـمع صـدي صـوتي.

لا زلـت أتجـول كتائـة بـين ممـرات الجامعـة حتـى عـثرت عـلى جـدول الفرقـة الأولى لـدار علـوم، قاعـة المحـاضرات أكـبر مـن حـارة درب المـلاح، بـل أكـبر مـن شـارع الصاغـة نفسـه، قـررت ألا أجلـس

في الصفـوف الأولى فأنـا لا أحبهـا، كـما إن نظـرات الدكتـور موجهـة للصفـوف الأولى دائمًـا، مـاذا لـو سـألني سـؤالاً مفاجئًـا في لحظـة شرودي كـما كانـت تفعـل المعلمـة في المدرسـة الابتدائيـة لتطلـب منـي أن أعيـد لهـا مـا سـبق شرحـه ورغـم اسـتيعابي مـا شرحتـه إلا أن المفاجـأة تجعلنـي أتلجلـج وأنـسى كل شيء فأشـعر بنظـرات البنـات تلاحقنـي وبجـدران الفصـل تضيـق عـليَّ؛ لذلـك أكـره الصفـوف الأولى، سـأعتمد عـلى قـوة إبصـار العـين اليمنـى، وأجلـس في الصفوف الأخـيرة، بالإضافـة إلى إن الانشـغال بالنظـر إلى رؤوس الطـلاب والطالبـات يسـاعدني أكـثر عـلى التركيـز، كما يسـاعدني الضجيـج عـلى النـوم، يبـدو أننـي مختلفـة عنـك في هـذه النقطـة فأنـتِ لا تسـتطيعين النـوم إلا بعـد أن يعـم السـكون والهـدوء لكنـي ذات طبيعـة مختلفـة فأنـا أكيِّـف نفـسي عـلى أي وضـع أُحـشر فيه، لأن بيتنـا لم يكـن يخلـو مـن الضجيـج لذلـك اعتـدت أن أنـام وسـطها دون أن أشـكو أو أصرخ أو أطلـب منهم أن يغلقـوا جهـاز التسـجيل الـذي يصيـح بالأغـاني الشـعبية، ولم أقـم بنهـر أخـواتي عـلى الشـجار والثرثرة

بصـوت عـال؛ فأذاكـر وسـط أصواتهـن المرتفعـة، هكـذا اعتـدتً التركيـز أكـثر في آخـر صـف وسـط الصخـب الـذي يحدثـه البعـض؛ كالنمائـم التـي تـدور بـين الشـباب حـول البنـات، وهمـس البنـات مـع بعضهـن ينتقـدن ملابـس الشـباب أو ليظهـرن بعـض عيـوب الدكتـور.

محـاضرة اليـوم عـن الشـعر العمـودي بـدءًا مـن العـصر الجاهـلي وحتـى العـصر الحديـث، الدكتـور «ريـاض" مـن الجيـل القديـم، جيـل أحمـد شـوقي وحافـظ إبراهيـم، ذلـك الجيـل الأصيـل الـذي أعتـبره النقطـة الفاصلـة بـين عصريـن مختلفـين في جميـع المسـتويات سـواء في الأدب أو الفـن أو حتـى عـلى المسـتوى الاجتماعـي، العـصر القديـم بسـماته التقليديـة، والعـصر الحديـث بـكل تقلباتـه. استرسـل دكتـور ريـاض في المعلقـات الجاهليـة وأثنـى بشـدة عـلى أهميـة الشـعر التقليـدي لدرجـة أنـه أقـرَّ بعـدم اعترافـه بمـدارس الشـعر الحديثـة.

لا أنكـر دور الشـعر العمـودي في الحفـاظ عـلى أصالـة اللغـة العربيـة وقواعدهـا منـذ العـصر الجاهـلي وحتـى الآن، لكـن أن يقـر أسـتاذ مـن أكـبر أسـاتذة دار علـوم بعـدم اعترافـه بمـدارس الشـعر الحديثـة فهـذا شيء مـؤلم سـماعه، خاصـة وأنـا أنتمـي إلى تلـك المـدارس، ورغـم بـركان الغضـب داخـلي لم أنهـض لأجادلـه وأقـول لـه مـا العيـب في الشـعر العامـي؛ لأني عـلى يقـين مـن أنـه لم يسـمع رباعيـات صـلاح جاهين ولا أغـاني سـيد حجـاب ولا قـرأ قصائـد أحمـد فـؤاد نجـم.

آه تذكـرت، لم أقـل لـك متـى بـدأت كتابـة الشـعر، كنـت بعمـر تسـع سـنوات لم يكـن يشـغلني شيء في الدنيـا سـوى مشـاهدة التلفزيـون بالأبيـض والأسـود، لم تكـن الألـوان قـد انتـشرت بعـد، ولم نعـرف الألـوان إلا في شاشـات السـينما، أمـا في بيـوت البسـطاء أمثالنا فـلا يوجـد سـوى الأبيـض والأسـود، وفي ذلـك اليـوم مـن أيـام الصيـف الحـارة التـي تحاوطنـا باللزوجـة والعـرق وتحاصرنـا بالملـل كان موعـد عـرض فيلـم «عصفـور» للمخـرج يوسـف جاهـين وبعـد انفعـالي

مـع الأحـداث جـاءت تلـك الأغنيـة في نهايـة الفيلـم:

«مصر يا أمه يا بهية

يا أم طرحة وجلابية

الزمن شاب وانتي شابة

هو رايح وانتي جاية»

شـعرت بموسـيقى الكلـمات تتغلغـل في روحـي. وبعـد نهايـة الفيلـم دخلـت حجـرتي وأخـذت أدنـدن بكلـمات الأغنيـة ثـم شـعرت بـأن لـدي قـدرة عـلى تأليـف كلـمات مثلهـا؛ فأمسـكت بكراسـة المدرسـة، وكتبـت أغنيـة في حـب مـصر تشـبه مـا سـمعته. بعـد أن انتهيـت شـعرت إننـي فعلـت شيء يسـتحق الاهتـمام لذلـك جريـت عـلى أبي وقرأتهـا لـه.. نسـيت أن أوضـح لـكِ أن أبي حاصـل عـلى الشـهادة الإبتدائيـة ويتصفـح كل يـوم جريـدة الأهـرام وبعـد أن ينتهـي يطويهـا ويرفـع أنفـه إلى أعـلى وهـو يقـول لأمـي: «عرفتـي الـلي حصـل في البلـد!»

عندمـا تشـيح برأسـها غـير مباليـة يعلـو صوتـه وهـو يقول:

«جاهلة زيك هتهتم بالي بيحصل ليه، انتي كفاية عليك حكاوي أم مصطفى.»

رغم غضبها المكتوم إلا أنه يعود ويحكي لها ما قرأه في صفحات الجرائد كأنه لا يقرأ إلا ليحكي لها.

في ذلك اليوم بعد أن سمع ما قرأته صفق لي وقال:

«كلامك حلو لكن البداية مش بتاعتك أنا عايز يبقى كله لك.»

فدخلت حجرتي وجربت أن أكتب واحدة أخرى لم أستعن فيها بكلمات تلك الأغنية لكني كنت أستعيد موسيقاها في أذني وأدندن باللحن وأنا أكتبها، عندما قرأتها له حضنني وقال: «أنا عارف إن ربنا هيعوضك خير.»

ومن يومها لم أكف عن الكتابة لكن كيف أقنع عمالقة دار علوم أن الشعر العامي سيكون له مستقبل في مصر؛ فهو يمثل شريحة كبيرة من المجتمع الذي لا يقرأ ولا يميل إلى القراءة.

عمومًا أنا لم آتِ إلى هنا كي أقنعهم بوجهة نظري بل جئت كي أدرس الأدب واللغة على أصولها لأمتلك أدواتي كشاعرة ولا يتهمني أي أحد في المستقبل بأنني اتجهت إلى الكتابة بالعامية لجهلي بقواعد اللغة العربية.

في اليوم الذي قررت فيه السفر بحثت عن أمي في البيت ولم أجدها فخمنت أنها فوق السطوح كعادتها عندما يصيبها الضيق والقلق من شيء، فتسللت كعادتي بخفة إلى السطح ووجدتها تجلس وسط الكتاكيت تحدثهم عني:

«أمل هتبقى أبلة وهتسافرعشان تاخد الشهادة الكبيرة، أبوها بيقول إن هيكون ليها مستقبل كبير يالله عليه العوض ما دام اخواتها البنات بيتجوزوا واحدة ورا التانية مش هيجرى حاجة لو قعدت تونسني.»

بالطبع لم تلحظ وجودي فابتعدتُ قليلاً وناديت عليها لأعلمها بمجيئي. عندما أمسكت بيدها لأقبلها بكت وهي توصيني على نفسي، لأول مرة

أشعر بحبها لي، بالطبع أعرف أنها تحبني كأم لكن أن يصل إليَّ هذا الشعور.. أن تأتي لحظة وتعبر فيها عن حبها لي كان من الأمور غير الواردة على ذهني.»

أشعر بالسعادة وأنا أبحر في أعماق الشعر العربي، ربما أكتب هذا الشعور في قصيدة في وقت لاحق، أعرف أن استخدام لفظة السعادة والفرح ستثير جدل النقاد الذين اعتادوا على شعري الذي لا تخلو مفرداته من ألفاظ الحزن والموت والفراق، هل ذكرت لك أنني كنت في إحدى المهرجانات الأدبية التي يحضرها كبار شعراء مصر وألقيت قصيدة عن الموت هل تذكرينها؟

فوجئت بعد أن انتهيت إن إحدى الشاعرات تنخرط في البكاء فقد ذكَّرتها القصيدة بموت ابنتها الشابة، فما كان مني إلا أنني مكثت بجوارها أعتذر لها عما بدرَ مني.. هذا هو الشعر لغة مشاعر لغة تمس قلوبنا لتفرغ ما بها من أحمال وأثقال الماضي.

هـل تذكريـن مـا قالتـه لي صديقتنـا منـال ذات يـوم "إنتـي ليـه مـا بتكتبيـش شـعر رومانـسي عـن الحـب والغـرام؟"، لم أقـل لهـا يومهـا إننـي لم أعـرف الحـب حتـى أكتـب عنـه، حتـى عندمـا كنـت أجلـس وسـط البنـات في مدرسـة الثانويـة الفنيـة وأسـمع قصصهـن عـن الحـب ومغامراتهـن مـع الشـباب لم تكـن بداخـلي أي رغبـة في أن أختلـق قصصًـا وهميـة مثـل هـؤلاء اللـواتي لا قصـص لهـن؛ فأنـا لا أجـد بطولـة في خوض تجـارب مـن مثـل هـذه التفاهـات، فكيـف أكتـب عـن شـوق الحبيـب ولم يكـن لي حبيـب؟ وكيـف أكتـب عن لهفـة اللقـاء وألم الفـراق وأنـا لم أعـرف هـذه الأشـياء؟

كل مـا عرفتـه في حيـاتي هـو المـوت.. عرفتـه مـن مـوت إخـوتي الذكـور؛ ظلـت أمـي بعـد ميـلادي تنجـب أولاد ويتوفاهـم اللـه وعندمـا وصـل الرقـم إلى سـبعة نفـد صبرهـا وبـدأت تلجـأ إلى الدجالـين؛ فقـد كانـت تعتقـد بتفكيرهـا البسـيط أن عـين جارتنـا حمدية التـي لم تنجـب تحسـد أمـي عـلى كـثرة الانجـاب وبالتـالي يمـوت الأولاد ويعيـش البنـات لأن البنـات لا يصيبهـا الحسـد.

لكـن مـا حـدث مـع العرافـين والدجالـين جـرحٌ

آخر يُضاف إلى قائمة جراحي العميقة؛ فقد أقنعوها أن العيب مني أنا؛ لأن جسدي يتلبسه جني يخنق إخوتي من شدة الغيرة، وبدأت رحلة أخري من العلاج أشد إيلامًا من رحلة فقدان عيني، أنا لم أكشف عن الوشم الذي في جبيني وقدمي أمام أي أحد في الدنيا حتى أمام أقاربي وصديقاتي المقربات وأولهن أنتِ ياعزة لم أحدثك من قبل عن قصة الوشم؛ خمس غرز من إبرة حادة غاصوا في لحمي واتعقد عليهم بإحكام كي يُحبس الدم فيه اعتقادًا منهم أن الجني سيتألم ويترك إخوتي يعيشون، لكنه لم يتألم أنا التي تألمت وصرخت وترجيتهم كي يتركوني، الألم أكبر من احتمال طفلة بعمر تسع سنوات، فأخذت أدعو الله أن يعيش إخوتي كي تتركني أمي وشأني، وحدث بعد تلك السنوات التسع أن جاء أخي ناصر ولم يمت، تخيلي بعد كل هذا العذاب الذي عانيته مع العرافين عاش ناصر، لكن أمي لم تخبر الجيران أنه ولد، ألبسته ملابس البنات وتركت شعره ينطلق خلف ظهره اعتقادًا منها أنها تخدع الجني ولن يمسه بسوء.

وعـاش نـاصر وعانـت أمـي في تربيتـه أكـثر مـما عانـت مـع أربـع بنـات لدرجـة أوصلتهـا إلى النـدم عـلى خلفتهـا لـه، لم أغضـب منهـا في هـذه أيضًـا؛ فأنا أعلـم أن الأمهـات لا يخطـئن في حـق أبنائهـن وليـس مـن حـق الأبنـاء أن يثـوروا في وجـه أمهاتهـم، لكنـه ألم ومـرَّ مثـل الكثـير مـن الآلام التـي مـرت وسـتمر.

انتهـى اليـوم الأول في الجامعـة دون ارتـكاب أي أخطـاء، أعتقـد أن هـذه هـي ميـزتي الوحيـدة فدائمًـا مـا يثنـي عـليَّ أبي ويقـول: "أمـل الوحيـدة الـلي عمرها مـا غلطـت، كل عيـالي تعبـوني بمشـاكلهم إلا هـي.»

أبي! كـم أشـتاق إليـه كنـت أنتظـر اللحظـة التـي يعـود فيهـا إلى البيـت لأشـعر بالسـكينة والأمـان.. كلما رآني أبـكي لأي سـبب يضمنـي في صـدره وهـو يقـول: «مـا أقـدرش أسـتحمل دموعـك» فأكـف عـن البـكاء في الحـال مهـما كان قـوة السـبب الـذي دفعنـي إليـه، ثـم ندخـل في نوبـة مـن التهريـج والمـزاح أنـا وهـو فقـط، وينـزوي العـالم كلـه أمامـي في هـذه اللحظـة حتـى يصـير «فـاروق»؛ أبي.. هـو كل العـالم!

الرسالة الثالثة

اليوم هو الثالث عشر من أكتوبر ١٩٩٢

الحمد لله إنك بخير، بمجرد وصولي إلى المدينة الجامعية أخبرتني المشرِفة عن اتصالك واطمئنانك عليَّ،

كان يوم أمس أصعب يوم مرَّ عليَّ في القاهرة بل في عمري كله، بعد أن أنهيت محاضراتي في الجامعة انصرفت في طريقي إلى السكن في تمام الساعة الثالثة قبل حدوث زلزال القاهرة بعشر دقائق. كنت أسير أنظر في وجوه الناس المجهدين والمتعبين من شقاء يومهم وسعيهم الدؤوب وراء الرزق وأنا أحدِّث ربنا وأقول له "إمتى هيتحقق عدلك يارب" وفجأة في عز شجني شعرت بالأرض تهتز من تحتي والطريق يتماوج أمامي، لم يستوعب عقلي في هذه اللحظة أنه زلزال فلم يحدث زلزال من قبل في حياتنا أو حياة آبائنا،

كل ما طرأ في ذهني أنها رسالة من الله ردًا على سؤالي "إمتى هيتحقق عدلك يا رب" خُيل لي أن الله جعل الأرض تهتز تحت أقدام الظالمين أو أنها ستنشق وتبتلعهم واحدًا واحدًا، وسيبدأ عهد جديد يتحقق فيه العدل ويعمّ السلام الأرض؛ سنرى فلسطين حرة والعراق بلا دماء والعرب بلا قيود.. سيشبع الفقراء ويأوي المشردين في مساكن، أنا لا أشك في عدل ربنا لكنها لحظة استعجلت فيها الفرج ووصلتني الرسالة في نفس التوقيت؛ بأن الله الذي زلزل الأرض قادر أن يغير الأحوال.

لا أدري لماذا توارد كل هذا في عقلي وأنا أرى الناس يركضون يمينًا ويسارًا كأنهم يفرون من وحش يطاردهم؛ نساء يصرخن ورجال يفزعون، الكل يهرب من المباني والبيوت ظنًا منهم أنها تنهار، وفجأة امتلأت الشوارع بالناس، لم تجد السيارات مكانًا تسير فيه، في تلك اللحظة أدركت أن ما حدث زلزال هز مصر كلها وستعاني من تبعاته لأيام طويلة.

تذكرت عمتي التي تسكن في بولاق أبو العلا في

بيت قديم، ومن سوء الحظ أن عمي في استضافتها؛ منذ توفيت زوجته وسافر ابنه الوحيد إلى الخارج وهو يعيش وحده، ومن وقتٍ لآخر تدعوه عمتي لقضاء بضعة أيام معها هي وأولادها كي لا تقتله الوحدة.

لم أستطع أن أكمل طريقي إلى السكن، استدرت وذهبت إلى بولاق أبو العلا؛ ذلك الحي الشعبي الذي يكتظ بالفقراء والبيوت القديمة، وجدته كأنه أنبوبة وانفجرت بالناس، رأيت بعض المباني تسقط والنساء تفر بملابس النوم، زاد قلقي أكثر على عمي وعمتي. حفرت طريقي وسط الفزع والزحام حتى وصلت إلى مكان عمتي وجدتها هي وأولادها وعمي يقفون أمام البيت وعيونهم معلقة على الجدران يراقبون انهياره، سلمت عليهم وأنا أبكي من بؤس المناظر التي رأيتها في طريقي إليهم، أخبرني عمي أنه سيصعد إلى الشقة ليحضر حقيبة أوراقه - هو رجلٌ كبيرٌ ويتحرك بصعوبة - أقسمت عليه أن يبقى بعيدًا عن المنزل وأصعد أنا، لم أخشَ من سقوط البيت على رأسي، ولم

أخش الموت في هذه اللحظة فهي أوقات استثنائية ننسى فيها مجرد فكرة الموت، صعدت وأنا أسمع صوت تصدُّع الجدران وأرى الثقوب التي تتسع في السقف، وبمجرد أن عثرت على الحقيبة لا أعرف كيف هبطت السلالم الحجرية حتى وجدت نفسي في الشارع أمدُّ يدي بالحقيبة لعمي وأخبرهم أنه يجب أن نبتعد عن البيت. وبمجرد أن خطونا بضع خطوات للخلف سمعنا صوت ارتطام قوي يشبه دويّ انفجار قنبلة يدوية صنعها كيميائي خبير في المفرقعات.

افترشت الجدران الطريق غير آبهة بقِطَع الأثاث التي تناثرت تحتها، أمسكت بيد عمي وأكملنا السير وسط جموع الناس، لم نجد مكانًا نذهب إليه سوى مسجد الشيخ حسن، دخلنا المسجد أفواجًا أفواجًا، نسأل الله السلامة؛ فجميعهم تركوا بيوتهم إما منهارة أو على وشك الانهيار، لم يسعفهم الوقت لحمل متاعهم أو ملابسهم أو حتى ليتذودوا من طعام الغداء الذي انتهوا للتو من إعداده قبل حدوث الزلزال بدقائق معدودة،

حمدنا الله لأننا وجدنا المسجد شامخًا لم يتأثر بمحاولات الزلازال بالتصدع، جلسنا كلنا نلتقط أنفاسنا.. نحاول استيعاب ما حدث وأنا لا أكف عن البكاء، أتخيل لو أنني تأخرت لعدة دقائق ماذا كان سيحدث لعمي وعمتي، وبعد أن استعدت هدوئي بنسمات المسجد المنعشة للروح بدأت أنظر حولي وأبصر جموع الناس، وتذكرت تلك المشاهد التي لم تفارقني منذ الطفولة بمجرد سماع صافرة الإنذار، كنا نغلق الأنوار وننزل إلى الدور الأرضي، وإذا رأينا ضوءًا يأتي من بعيد نصرخ في صوت واحد "طفي النور" كي لا تلمحنا طائرات العدو التي تتجسس فوق سمائنا وتبطش بنا، تخيلي أن يكون الظلام هو الأمان ومجرد شعاع من النور يهدد حياة حي بأكمله!

ومهما عشت لن أنسى منظر مدرسة البقر، كنت بعمر أربع سنوات وكان التليفزيون لا يكف عن عرض مشهد حطام المدرسة وجثث الأطفال والدماء في كل مكان وثمة من ينددون بما حدث، كيف لهذا العدو أن تواتيه الجراءة والقسوة ليسلط

طائراتـه وأسـلحته على أطفـال أبريـاء لم يعلنـوا الحرب ضـده.. لم يحملـوا سـلاحًا أمامـه.. لم يحملـوا سـوى أقلامهـم وكراسـاتهم التـي لم يخطّـوا فيهـا سـوى حـروف الأبجديـة: «ألـف: أحـب. بـاء: بـلادي».

ليمزقهـا عـدو غـادر هكـذا بمنتهـى البسـاطة يرسـل طائراتـه لتدمـر المدرسـة في أقـل مـن عـشر دقائـق ويتركـوا خلفهـم جثثًـا صغـيرة لثلاثـين طفـل، ممزقـة وملطخـة كتبهـم بالدمـاء ويضـاف إليهـم العاملـون بالمدرسـة.

وبعـد مـرور عامـين عـلى الحادثـة التحقـت بالمدرسـة الابتدائيـة ولم تكـن الحصـة الأولى لتعليـم حـروف الأبجديـة كـما كان في المـاضي بـل علمونـا كيـف نختبـئ إذا حدثـت غـارة.. الأطفـال دائمًـا هـم ضحايـا الحـروب، لكـن هـذا الزلـزال لم يفـرق بـين كبـير وصغـير.

انتبهت من شرودي على مشاعر الالتحام بين الناس؛ فهناك من يوزع زجاجات المياه على الجالسين ومن اشترى بعض الفاكهة ويمر بها على المجهدين ومن أحضر ملابس من بيته ليعطيها للذين لم يسعفهم الوقت لستر أبدانهم، هؤلاء العرايا لم نشعر بوجودهم بيننا فكل واحد منَّا منشغلٌ بما هو فيه.

لاحظت فزع الأطفال فأخذت أطوف عليهم لأهدِّئ من روعهم وأطمئِنْ الأمهات بعدم وجود إصابات بيننا، رغم إلحاح عمي عليَّ بالعودة إلى السكن الجامعي وتأكيده لي إنهم بخير وسيعودون إلى بني سويف بعد أن يعرف مصير البيت المنهار، إلا إنني تمسكت ببقائي معهم حتى هبط الليل الذي شعرنا به ليلاً ثقيلاً محمَّلاً بكل الذكريات المؤلمة.

نام الجميع من شدة التعب ورقدت بجانب عمتي وبناتها، أتعارك مع النوم كي أنسى ما حدث، وأثناء المحاولة وأنا أغمض عيني في ثبات الوسن لمحت الجميع متراص في صفوف متوازية، رجال

ونساء كبار وصغار، لا ينشغل شاب بالنظر إلى فتاة أو امرأة تخشى على نفسها من رجل غريب؛ فنحن ضيوف الرحمن نعلم أن الله يحرسنا ويرعانا.

يوم ثقيل ذكرني بما سمعته عن يوم القيامة، كنت صغيرة وعقلي لا يستوعب تلك الأمور عندما أخبرتنا معلمة الدين أن يوم القيامة سيحاسبنا الله على أعمالنا وسيبعثنا من القبور عرايا وسنقف في أرض المحشر عرايا. يومها اندهشت وقلت لها: "لكني أخجل من أن يرى أحدٌ جسدي» فابتسمت ابتسامة رقيقة وقالت: «هول الموقف سيجعل الناس لا ينشغلون بالنظر إلى بعضهم البعض ألم نولد عرايا؟" قلت: «نعم" قالت: "كذلك يحشرنا الله عرايا».

بالفعل هول الموقف الذي مر بنا، جعل الناس لا ينظرون إلى بعضهم، ينامون في سكون وطمأنينة، ولعل بعضهم يحلم أحلامًا سعيدة ولعل البعض الآخر كان يفتقر إلى مشاعر الونس، ولعل فتاة وجدت شعور الأمان وسط هذا الجمع الكبير. أغمضت عيني ونمت وأنا أشعر بالزلزال يهز

جسدي وبالأرض تنشق وتبتلعني لكني نمت ولم أفق إلا على ضوء الصباح يغمر المسجد، تبعه دبيب حركة الناس من حولي تعلن ميلاد يوم جديد لا يعرفون إلى أين يذهبون فيه بعد أن تهدمت بيوتهم القديمة.

أصر عمي أن نغادر المكان، وأن أعود إلى السكن وجاء معي ليؤكد على المشرفة بأنني قضيت ليلة أمس عنده، ثم عاد إلى عمتي لينهي بعض الإجراءات ويعودوا بعدها إلى بني سويف.

يوم طويل من أطول أيام حياتي لكنه مضي ولم يسعدني ويخرجني من تلك الحالة سوى إخبار المشرفة لي باتصالك لتطمئني عليَّ.. أنا بخير يا عزة وأتمنى أن تكوني بخير، لكن الأمر الذي يثير سخريتي أن هذا الزلزال لم يحدث إلا بعد التحاقي بجامعة القاهرة بعشرة أيام يذكِّرني بالنكسة التي حدثت بعد مولدي بأسابيع، هل هي صدفة أن تثور الأرض بأحمالها في ١٢ أكتوبر كما حضنت شجعانها في ٥ يونيو، لا أدري، أعرف أنها أقدار الله ليس لها علاقة بتدبير البشر.

ظلت جدتي تردد بعد ميلادي لغضبها من كوني البنت الرابعة لأبي قبل ميلاد أخي ناصر «وشك شؤم على البلد كلها" ولو كانت على قيد الحياة لندبت حظ ابنتها واتهمتني بشؤم وجهي على القاهرة كلها، ليست كلها يا جدتي، فالأغنياء يسكنون الفلل والعمارات العالية ولم يصبها خدش واحد، إنهم الفقراء فقط يا جدتي.. الفقراء وحدهم هم مَن تشردوا بلا مأوى أو حتى ملابس تستر أجسادهم.

لكني أعرف أن وراء كل هدم بناء جديد، وبعد كل نهاية بداية جديدة فبعد نكسة ٦٧ لم يرضَ أبطال مصر بالهزيمة ونشبت حرب الاستنزاف التي كانت أشبه بعمليات انتحارية أقلقت العدو وهددت أمنه، وتلك الانتصارات البسيطة أعادت الأمل للمصريين في النصر والثقة في شجعانها وأبطالها، ولم يمضِ وقت طويل حتى تحقق النصر في ٦ أكتوبر ١٩٧٣، أعرف أن ذلك التاريخ يلي تاريخ ميلادك بعامين لكن هذا التاريخ أصبح عيد ميلاد لكل المصريين.. عيد إعادة الثقة وإعادة الأرض

وفرحة المصريين بعودة سيناء حرة لا تعادلها فرحة، وانطلقت احتفالات النصر في كل مكان وإلى الآن مازال القيادة والشعب يحتفلون بعيد النصر الذي سبق الزلزال بستة أيام.

فهل هذا الزلزال الذي تهدمت فيه البيوت القديمة غير الوفيات والإصابات والأسر التي تشردت هل سيأتي بعده بناء، هل ستتلقف الدولة الفقراء في صدرها كأم حنون وتوليهم رعايتها؟ هل ستقام ثورة في يوم من الأيام للمطالبة بالعدالة الاجتماعية؟ كلها أمور من الغيبيات.. لكن الأمر المؤكد أن هناك فتيلاً اشتعل في القلوب ربما ينطفئ يومًا، وربما يواصل اشتعاله حتى يستحيل كتلة من اللهب المتأجج.

الحمد لله اتصل أبي وعرفت أنهم بخير، أخبرني أن بيتنا متين كأصحابه وأنه لم يصبه ولو خدش صغير، لكنهم ظنوا ككل الناس أن البيت ينهار، وعندما اكتشفوا أنه زلزال مفاجئ كانت الطيور قد هجت من فوق السطح إلى الحارة وانشغل بالجري وراءها ولملمتها من تحت الأقدام، حتى الطيور

لديهـا غريـزة البقـاء! كنـت أظـن أننـي تركـت ذكريـات المـوت عندهـم لكـن هـا هـو المـوت يطـاردني في أيامـي الأولى في القاهـرة.

يـوم صاخـب، لا أصـدق أننـي عـدت إلى حجـرتي ويعـمّ الهـدوء حـولي، أخـيراً سـألقي بجسـدي عـلى فـراشي- كل مـا أملكـه بشـكل مؤقـت في القاهـرة- سـأنام لأسـتكين ويهـدأ عقـلي، سـأنام لأسـتطيع العودة إلى مـا كنـت عليـه قبـل الزلـزال.

الرسالة الرابعة

مـضى العـام الأول، أشـعر أننـي عـبرت للجهـة الأخـرى مـن المسـتقبل.. شـهور مضـت حافلـة بالأحـداث والذكريـات الجميلـة؛ تعرفـت عـلى بنـات المدينـة الجامعيـة، تقربـت مـن زميـلاتي المعوقـات، لـو رأتنـي أمـي معهـن لقالـت عـلى رأي المثـل "الأعور وسـط العميـان سـلطان»، هـذه هـي الحقيقـة التـي لا مفـر منهـا، أصبحـتُ سـلطانة بينهـن؛ فأنـا مـن أقـضي مشـاويرهن وأشـتري حوائجهـن، يستشـيرنني في كل صغـيرة وكبـيرة، ويلجـأن إليَّ لحـل مشـاكلهن، أنـا سـعيدة لأن اللـه سـخرني لقضـاء حوائـج خلقـه.

لكنـي لم أحبـس نفـسي في هـذه الدائـرة فقـط، سـعيت للتعـرف عـلى معظـم بنـات السـكن خاصة كل مـن تنتمـي إلى دار علـوم لأسـتفيد مـن خبراتهـن في مذاكـرة بعـض المـواد الدراسـية، ولأعـرف منهـن طبـاع الدكاتـرة وأسـلوب كل دكتـور في الـشرح والامتحـان،

ورغـم تعـرفي عـلى كل طالبـات دار علـوم لم أجـد مثيـلاً لزميلتـي هنـد، سـواء بـين بنـات المدينـة أو بـين بقيـة طالبـات دار علـوم، هـل تصدقـين أن بعـد أيـام مـن تعارفنـا أصبحنـا أعـز صديقتـين، نقـضي أغلـب اليـوم في الحديـث عـن المـاضي ولا نفـترق إلا في أوقـات النـوم، حجرتهـا تشـبه حجـرة الضيـوف لا تخلـو طـوال اليـوم مـن الزائـرات.

لهـا قصـة غريبـة لا تمـل مـن سردهـا طـوال الوقـت؛ فقـد كانـت تعيـش مـع أبيهـا بعـد طـلاق أمهـا بالطبـع هـي تزوجـت مـن رجـل آخـر وهـو لم يتأخـر في إحضـار زوجـة أب لهـا، وبـدأت تعـاني مـما تعـاني منـه أي بنـت مـن سـوء معاملـة زوجـة الأب، وبمجـرد أن أنهـت الثانويـة العامـة اختـارت كليـة دار علـوم حتى تبتعـد عـن مدينتهـا الفيـوم وعـن أبيهـا وزوجتـه، كل ما مـضى طبيعـي، لكـن غـير الطبيعـي أنهـا لا تسـعى وراء النجـاح الـدراسي فهـي تجـد في المدينـة الجامعيـة مرفـأ لهـا بعيـدًا عـن مشـاكل أبيهـا وأمهـا وكل الحواجز الموضوعـة بينهـا وبينهـم؛ فاعتـادت أن تدخـل لجنـة الامتحـان ولا تكتـب شـيئًا، تـترك الـورق أبيـض كـما

استلمته وتخرج لتتسكع في شوارع القاهرة.. تسع سنوات مضت عليها في دار علوم بهذا الوضع لا تشعر بالفرح أو الحزن، لا تشعر أنها تدمر مستقبلها ولا أنها تفقد أجمل سنوات عمرها كالمدمن الذي لا يشعر أنه يدمر حياته كلها بالمخدرات، أصبحَتْ أشهر طالبة في دار علوم، وأشهر طالبة في السكن الجامعي لدرجة أن المشرفات يستعن بها في بعض المهام.

يرسل لها أبوها مبلغًا كبيراً كل شهر كتعويض عن تقصيره معها وهي لا تدخر جهدًا في تدمير هذا المبلغ في الأسبوع الأول ما بين الفسح والأكل في المطاعم، وما بين شراء الأحذية وأدوات التجميل لا أدري ما سر شغفها بالأحذية لهذه الدرجة، ربما تشعر بالتجدد مع كل حذاء جديد وربما يعكس حالة عدم الاستقرار التي تغمرها، لكنها لا تفرح بشيء كما تفرح بالحذاء الجديد.

وبعد أن تنفق كل ما تملك تمكث في السكن لباقي الشهر، تحول ليلها إلى حفلات مفتوحة

فتجتمع البنات في حجرتها للسمر والسهر والغناء إلى أن يأتي الصباح ببطء فتكمل باقي يومها في النوم.

إنسانة متحررة إلى أقصى الحدود، عكسي تمامًا فأنا أخشى عمل أي شيء سوى الذهاب إلى الجامعة لحضور المحاضرات والعودة مسرعة للسكن للمذاكرة، حتى الندوات التي كنت أحلم بحضورها في المنتديات الثقافية منعت نفسي عنها، سخَّرت وقتي كله للدراسة فقط، أتجنب التعامل مع زملائي الشباب، أتحدث مع الدكاترة بتحفظ، أبتعد عن الرجال في كل مكان حتى لو مروا بجواري في الشارع. أبتعد مسافة كافية تجنبهم النظر إليَّ.

بينما هي لا تحضر أي محاضرة ولا تعرف شيئًا عن المواد الدراسية، لها أصدقاء شباب في كل مكان لا تتردد في الخروج والبيات في الشارع بعد أن تقدم طلب إجازة لزيارة أسرتها في مدينة الفيوم، ولأن لا أسرة لها فهي تقضي الإجازة في السهرات والسمر، لا يذهب عقلك بعيدًا أيتها البريئة؛ فهي رغم كل هذا تحافظ على نفسها ولا ترتكب أخطاء تمس الشرف، وإن كنت أرى في كل ما تفعله أخطاء تمس

الأخـلاق، دائمًـا مـا تقـول لي كلـما نصحتهـا مـن طمع الشـباب "الحـرة تقعـد وسـط ميـت راجـل ومـا حـدش يقـدر يمـس شـعرة منهـا" أرى قـوة شـخصيتها وأتخيـل حزمهـا في تلـك المنطقـة مـع مـن تتعامـل معهـم، لكن تلـك الحـرة لا أسـتطيع اسـتيعابها بـكل متناقضتهـا، تخيـلي أنهـا تدخـن بشراهـة وتصـل بهـا الجـرأة أنهـا تسـمح لنفسـها بإشـعال سـيجارة في الشـارع غـير عابئة بعيـون النـاس التـي تلاحقهـا، عندمـا أراهـا أتذكـر مـا فعلـه أبي عندمـا رأى أخـي الوحيـد يدخـن لأول مـرة، كاد أن يقتلـه ويقتـل أمـي معـه لـولا تدخـل الجـيران وتوسـل أخـي بعـدم تكرارهـا مـرة أخـرى.

لا أنكـر أن هنـد تبهـرني أحيانًـا كقطـة سـيامي تقـف في شرفـة فيـلا أنيقـة تنظـر إلى القطـط الضالـة في الشـارع ويدهشـها حريتهـم وفوضويتهم، بالمناسـبة أنـا لا أحـب القطـط مـن الأسـاس مجـرد تشـبيه فقـط.

تحدثـت كثـيراً عـن هنـد لأنهـا شـغلت تفكـيري في محاولـة فهمهـا لكنـي في النهايـة توصلـت إلى أنهـا مجـرد فتـاة مسـكينة لم تعـش مراحـل حياتهـا الطبيعيـة بسـبب ظـروف أسرتهـا.

وهند ليست صديقتي الوحيدة؛ فهناك أخريات مثل فوزية الفتاة الصعيدية المتحفظة بشدة تشعرنا أنها تشحذ أوقات الدراسة من أبيها الذي يضغط عليها لتترك التعليم وتتزوج.. تصارع الزمن وتذاكر ليل نهار لتنهي دراستها قبل أن يأخذ أبوها قراره القاطع بزواجها من ابن عمها، أرأيتِ كيف نقلتك من الأرض إلى السماء بذلك الفارق بين هند وفوزية؟!

كما توجد أيضًا نهلة التي فشل مشروع خطوبتها بسبب وقاحة خطيبها في المطالبة بأشياء ليست من حقه، تركته كي تحتفظ بكرامتها ولا أخفي عليك سرًا لقد كنت أنا السبب في ذلك الفراق بعدما شكت لي ذات مرة من سلوكه الجريء معها، أعرف من خلال قراءاتي أن الرجل إذا حصل من المرأة على ما يريد يتخلى عنها بسهولة، ربما تطاردني عقدة هنادي في قصة "دعاء الكروان» لطه حسين، لكنها الحقيقة لم أسمع في حياتي أو أقرأ في الكتب عن رجلٍ أخطأ مع فتاة ثم صحح خطأه، أنا لا أتهم الرجال بالوحشية أو البدائية فهذه

غريـزة داخلهـم وهـذا مـا رسـخه المجتمـع في عقولهم «إن البنـت التـي تتسـاهل مـع حبيبهـا تتسـاهل مـع كل الرجـال وشرف البنـت مثـل عـود الكبريـت وشرف الولـد مثـل الولاعـة»!

نحتـاج إلى إعـادة تربيـة الرجـال وإقناعهـم أن الـشرف واحـد عنـد البنـت والولـد، والخطيئـة واحـدة والعقـاب واحـد، هكـذا أخبرنـا اللـه تعـالى عندمـا قـال: في سـورة النـور «والزانيـة والـزاني فاجلـدوا كل واحـد منهـما مائـة جلـدة "سـاوى بينهـما في العقـاب أي أن مسـؤولية الخطيئـة مشـتركة بـين الرجـل والمـرأة ولم يقـل سـبحانه اجلـدوا المـرأة واتركـوا الرجـل كـما يحـدث في حـاضر مجتمعنـا العـربي الرجـل يتباهـى بجريمتـه والمـرأة تنـال العقـاب وتدفـع الثمـن وحدها.

لكننـا لا نملـك في هـذا المجتمـع الـذي ابتعـد عـن كل سـبل الوعـي إلا إنقـاذ مـا يمكـن إنقـاذه وتوعيـة البنـات بتبعـات هـذا الأمـر وخطورتـه، وهـذا مـا اسـتطعت فعلـه، أقنعتهـا بـأن تحافـظ عـلى نفسـها

حتى يأتي صاحب النصيب، ومما زاد من قناعتها في هذا الموضوع ما حدث لصديقتنا مديحة التي اغتصبها زوج أختها وهي في المرحلة الإعدادية أثناء رعايتها لأختها المريضة، رأت فيه وحشًا لم يعمل حسابًا لطفولتها ولا لأختها التي هي زوجته، ومن يومها أخذت على عاتقها أن تنتقم من كل الرجال، فما إن تصادف رجلاً حتى ولو صدفة في المواصلات إلا وتنسج خيوطها حوله، وما إن يقع في غرامها لدرجة الجنون تتركه ليعاني لوعة الفراق.

كنت أظنها من فتيات الليل، وكنت أتجنب التعامل معها، كانت تشعر بنفور البنات منها رغم توددها معهن ثم حدث أن تشاجرت معها زميلاتها في الغرفة واتهمتها بأبشع الاتهامات ففوجئنا بها تنهار وتقسم إنها بريئة ولم يستطع أي أحد النيل منها سوى زوج أختها الذي اغتصبها وهي صغيرة، كم تمقته وتمقت كل الرجال!

أشعر إنني داخل دوامة كبيرة وتتسع كل يوم بأشياء جديدة لدرجة أنني أسأل نفسي:

«هـل سـيأتي اليـوم الـذي يميـل فيـه قلبـي إلى رجل يتقلـد مـن صفـات النبـل الإنسـاني مـا يجعلنـي أحبـه، أم إننـي سـأتزوج زواج صالونات.»

هـل سـأترك رجـلاً يتملكنـي ويتحكـم في حركتـي وفي علاقـاتي اذهبـي هنـا لا تذهبـي إلى هنـاك لا تكلمـي هـذا وابتعـدي عـن هـذه، لا أدري مـا زلـت أفكـر في هـذا الأمـر فكـرة "سي السـيد" تعشـش في رأسي، ورغـم شـغفي بـأبي إلا أننـي كنـت أرى تحكمـه في أمـي فـلا تسـتطيع الذهـاب إلى أي مـكان أو فعـل أي شيء حتـى لـو كان بسـيطًا دون موافقتـه.

هـل سـأصبح في يـوم مـن الأيـام جاريـة تخـص أحدهـم؟ أعلـم أنـك تتفقـين معـي في هـذه النقطـة وترفضـين العرسـان الذيـن يتقدمـون لـك وترددين طـوال الوقـت بأنـك لـن تتزوجـي، وأنـك سـتحصلين أولاً عـلى الماجسـتير والدكتـوراة وبعدهـا تفكريـن في الـزواج لتتفرغـي للبحـث والدراسـة، لكنـي يـا عـزة أتسـاءل أحيانًـا مـاذا لـو ألقـى القـدر في طريقـك فارس أحلامـك هـل سـتتخلين عـن مسـتقبلك لأجلـه، هـل سـتتركين القـراءة والكتابـة جانبًـا وتصبـين اهتمامـك

عـلى بيتـك وأولادك فقـط، هـل سـتضحين بأحلامـك المؤجلـة منـذ وعيـتِ الدنيـا مـن أجـل زواج ناجـح حتـى لـو طـرأت مشـاكل مثـل التـي تمـر بـين أي زوجـين؟ هـل سـتتحملين مـن أجـل أن تعـدي المركبـة كـما كانـت تفعـل أمـي وتفعـل أمـك؟! لا عليـك، إنها مجـرد أفـكار تمـلأ عقـلي وتلـح عليـه بمجـرد أن أعرف قصـة جديـدة مـن قصـص بنـات المدينـة الجامعيـة.

أسـمع طَرقًـا عـلى بـاب الغرفـة، إنهـا هنـد حـضرت لزيـارتي، سـأجلس معهـا بعـض الوقـت وأعـود إليـك لأكمـل حديثـي. لم تنتـه قصـص البنـات مـا زال هنـاك الكثـير مـن الحكايـات أريـدك أن تعريفهـا كلهـا حتـى تكتبـي في يـوم مـن الأيـام عـن مشـاكل البنـات ومشـاعر البنـات وأفـكار البنـات؛ أشـياء لم تشـغلي نفسـك بمعرفتهـا لأنـك تعدينهـا مـن الصغائـر لكنـي اكتشـفت أنهـا في غايـة الأهميـة سـأفتح لهنـد وأعـود بعـد قليـل.

تأخرت عليك لأسبوع كامل قبل أن أعود لهذا الخطاب الغريبة سطوره، الوقت آنية فارغة تمتلئ بهموم العالم.. ثوبٌ قصير يكشف عن سيقان الألم، ألم يشبه ألم زلزال أكتوبر، ينفضني يغربلني يبدل جلدي لتخرج مني فتاة أخرى.

هذا ما فعلته بي هند؛ عندما جاءتني من أسبوع، كانت في حالة نفسية سيئة، لم أستطع احتواء ما بها، فاقترحت أن نخرج إلى أي مكان لعلَّ الهواء الطلق يزيل اختناق أنفاسها، سرت معها أسمع مشكلتها مع شاب حاول استدراجها إلى الخطيئة وكيفية نجاتها منه بأعجوبة، لكنه فتح جميع جراح روحها.

ظلت تحكي عن طفولتها البائسة وسط شجار أبويها وانفصالهما وتجاهُل أمها لها وقسوة زوجة أبيها، ولم نشعر بالوقت يمضي، وجدنا أنفسنا في حي الحسين، ونظرًا لأننا في أول الشهر وما زال المصروف طازجًا في يدها، اقترحت أن نتناول العشاء في أحد مطاعم الحسين فوافقت كي لا أتركها وحدها. جلسنا لتناول الطعام وظلت مندمجة في

حديثها عن ذكريات حياتها حتى انتصف الليل واستحال عودتنا إلى السكن الذي تُغلق بوابته في تمام الساعة السابعة فلا يُسمح لبنت بالدخول أو الخروج من البوابة بعد ذلك.

عندما أدركتُ ما حدث بكيت من الفزع فهذه هي المرة الأولى التي أقضي فيها الليل بعيدًا عن السكن دون علم أبي، كما أننا لن نجد مكان يأوينا سنظل هكذا في الشارع حتى الصباح، كنت كطفلة صغيرة تاهت عن بيتها وتشعر بالضياع فأخذت هند تهدئني وتبسط الأمر وتستحث الشاعرة داخلي بأنها مغامرة تستحق الكتابة عنها فاستسلمت ووجدت نفسي أسحب سيجارة منها وأشعلها دون وعي ربما قصدت قتل القلق والخوف أوأردت إيهامها بأنني شاعرة تحب المغامرة.

أخذت نفسًا عميقًا من السيجارة وأنا أسعل وأتلفت حولي، فوجدت كل المقاهي ممتلئة بالشباب والبنات يتسامرون وتجلل أصوات ضحكاتهم المكان، فأقنعت نفسي بأنه أمر عادي، وأنني لم أرتكب جريمة تستحق كل هذا التوتر،

وبعـد أذان الفجـر تـلاشى قلقـي وأنـا أنظـر في اتجـاه شروق الشـمس أراقـب ميلادهـا في السـماء، وعندمـا ظهـر القـرص الأحمـر بأشـعته التـي تبـدد ظـلام ليلـة كئيبـة شـعرت أننـي لـن أعـود تلـك الفتـاة الخجولـة الصامتـة.. شـعرت أن ثمـة شـيئًا تفجَّـر داخـلي أو تغـير في لكنـي تذكـرت ثقـة أبي بي فبكيـت.

ومـع أول حركـة للنـاس في الشـارع توجهـت إلى السـنترال واتصلـت عـلى تليفـون عـم رمضـان جارنـا ليخـبر أبي برغبتـي في الحديـث معـه.. فجـاء أبي مسرعًـا مخطوفًـا بالخـوف ظنًـا منـه أننـي وقعـت في مشـكلة كبـيرة ومـما عمـق شـعوره صـوتي الممـزوج بالبـكاء فأخـذ يبـكي عـلى بـكائي ويتوسـل لي أن أقـول لـه مـا حـدث، فحكيـت لـه تفاصيـل الليلـة الماضيـة ولم أتـرك الهاتـف إلا بعـد أن سـمعت منـه عبـارة "دي آخـر مـرة تعمـلي حاجـة زي كـده وهسـامحك المـرة دي بـس لكـن لـو الموضـوع اتكـرر هتكـون في معاملة تانيـة بينـا" شـعرت براحـة الضمـير بعـد أن بحـت لـه وشـعرت براحـة أكـثر لأنـه احتـواني في لحظـة كـدت أنهـار فيهـا عـلى كل المسـتويات.

لكنهـا لم تكـن المـرة الأخـيرة فقـد اسـتيقظت الشـاعرة داخـلي التـي انتعشـت بسـهر الليـل ومنظـر شروق الشـمس ومغامـرات هنـد وضجـة الحسـين الـذي تفـوح منه رائحـة الأزمنـة العتيقـة، بعدهـا بيومين عرضـت عـليَّ هنـد أن نخـرج للترفيـه عـن قلوبنـا المثقلـة بهمـوم الحيـاة، لا أدري لمـاذا اسـتجبت بهـذه السرعـة بـل عـلى العكـس كنـت في غايـة الفرحـة.

ذهبنـا إلى الأوبـرا لنشـاهد عرضًـا مسرحيًّـا، كانـت هـذه هـي المـرة الأولى التـي أدخـل فيهـا دار الأوبـرا تلـك التـي كنـا نسـمع عنهـا أو نشـاهد عروضهـا في التليفزيـون باهتـمام شـديد، كان العـرض جميـلاً وهادفًا، والحـاضرون ملامحهـم توحـي بأنهـم مـن طبقـة المثقفـين، وبقـدر سـعادتي بقـدر مـا كانـت تؤرقنـي مشـكلة أخـرى هـي أيـن سـنذهب بعـد ذلـك والسـاعة تخطـت الحاديـة عـشرة ولـن نسـتطيع العـودة إلى السـكن الـذي يغلـق أبوابـه في تمـام السـاعة السـابعة، تركـت الموضـوع لهنـد فهـي خبـيرة في تلـك المواقـف، أخذتنـي وتوجهنـا إلى ميـدان التحريـر وظللنـا طـوال الليـل نطـوف في الميـدان ونتناقـش حـول العـرض

والقضايا المتضمنة فيه حتى أشرقت الشمس ووقفت أتأمل القرص الأحمر وميلاد يوم جديد.

حدث هذا أمس لكني لم أتصل بأبي ولم أعتذر له، هل أنا مخطئة؟ هل ارتكبت حماقة لا تُغتفر؟ لا أدري، أشعر أن المارد يقتحمني ويحتل جسدي، مارد الاستكشاف.. المغامرة.. التمرد.. الحياة التي لم أعشها من قبل.. الحرية التي تتمنى أن تعيشها أي مثقفة.

هذا ما فعلته بي هند في أسبوع دون أي اعتراض مني كأني أسلِّم لها نفسي لتمزق قيودها وتبدِّل أفكارها وتشكلها كما تريد، لا أدري كيف احتلتني هند بهذه السرعة، وكيف غيَّرت قناعاتي وكيف واتتني الجرأة لفعل أشياء وتصرفات دون علم أبي وموافقة أمي، لا أدري كيف قادتني شفقتي على هند إلى الموافقة بل الرضا على كل ما تفعله.

أعرف أن هناك خطًّا أحمر لجنونها وتحرُّرها وأن لديها أخلاقيات لا تتجاوزها بتهورها، كما تعرف هي أيضًا قيمي التي نشأت عليها وعدم قبولي لأي خطأ، لكننا التقينا في نقطة واحدة هي نقطة الجنون والمغامرة.

لا أعـرف يـا عـزة إن كنـت سأرسـل لـك هـذه الرسـالة أم سـأتركها في درج مكتبـي كي لا أسـمع اللـوم والتقريـع منـك.. فأنـت ضميري الـذي يؤنبنـي دائمًـا عـلى أخطـائي لكـن سـأقول لـك الحقيقـة..

إن حيـاتي تشـبه قطـارًا سريعًـا يريـد أن يصـل في الميعـاد المحـدد حتـى لا يُتهـم بالتقصـير لكـن القطـار استُهلِك في رحلـة السـباق مـع الزمـن، وفي حاجـة إلى أن يقـف في بعـض المحطـات ويسـتريح.. لا بـأس سـألتقط أنفـاسي مـن ركـضي المتواصـل منـذ الطفولـة وحتـى هـذه اللحظـة التـي أكتـب فيهـا الخطـاب.. أعـرف أننـي لـن أرسـله لـك، ربمـا أحتفـظ بـه لنفـسي، وربمـا أكتـب لـكِ آخـر أطمئنـك فيـه بـأن كل الأمـور تسـير كـما ينبغـي لفتـاة مغتربـة أو أكتـب لـك قصيـدة جديـدة بـدلًا عـن هـذا الخطـاب فـلا تغضبـي لأني لا أحتمـل غضبـك منـي أو عـليَّ.

ملحوظة:

تسـلمت هـذه الرسـالة يـدًا بيـد بعـد انتهـاء دراسـتها بالقاهرة.

الرسالة الخامسة

انتهى العام الدراسي وعدت إلى بيتنا بكل شوق وحنين كما تقول السيدة أم كلثوم، لكني لم أجد احتفاء من أحد كأن غيابي أصبح أمرًا طبيعيًّا اعتادوا عليه وسأصبح ضيفة عليهم فترة الإجازة.

واريت خجلي من شوقي لإخوتي وعدم مبالاتهم بوجودي ودخلت حجرتي كموناليزا حزينة تتصنع الابتسامة لتعود وتيرة الحياة كما كانت قبل أن آتي، لا يشغلهم سوى المشاكل التي يثيرها أخي ناصر أو مشاكل أختي الكبيرة مع زوجها أو شجارات جارتنا أم مصطفى اليومية مع باقي الجيران، أما أنا فعلى الهامش يكتفون مني بعدم إثارتي للمشاكل حتى لو كان طلب حق من حقوقي المتغاضي عنها.

الآن أشعر بما تعانيه هند فهي تحاول رأب

صدع روحها، تحاول أن ترتق شقوق قلبها.. تحاول الهروب من الوحدة بقدر ما تسمح لها أخلاقها، ورغم شدة احتياجها لوجود الآخر في حياتها إلا أنها لا تفكر مطلقًا في الزواج.

الآن أسأل نفسي: لماذا أرفض فكرة الزواج بهذا الشكل العنيف؟ لماذا أرفض بشدة فكرة وجود رجل في حياتي؛ هل بسبب تلك المشاكل التي عشتها بين أبي وأمي وشكوى أمي الدائمة منه سواء أخطأ في حقها أو لم يخطئ، أم إنها بسبب الأخ المدلل على أربع بنات والذي لا يرى سوى نفسه فقط في هذا العالم، أم إنه خوف من مجيء الآخر الذي يضغط على زناد الجرح ويعايرني بالجزء الناقص مني.. لا أعرف السبب بالتحديد لكني لا أتخيل نفسي في فستان الزفاف الأبيض ممسكة بباقة من الورد بيد وباليد الأخرى أتشبث بذلك الذي سيخطفني من نفسي وأحلامي.

بقـدر مـا كانـت رغبتـي في العـودة لبيـت أبي ولمدينتـي - وطنـي الصغـير- بقـدر مـا أشـعر أننـي لـن أفعـل شـيئًا في هـذه الإجـازة سـوى الحيـاة في العـالم الافـتراضي الـذي أتمنـى أن أعيشـه.

لا أدري لمـاذا أكتـب لـك هـذا الخطـاب مـا دمـت قـد عـدت وسـنلتقي قريبًـا، ربمـا لأن الكتابـة هـي الـشيء الوحيـد الـذي يشـعرني بأننـي مـا زلـت عـلى قيـد الحيـاة! سـأحاول أن أسـتريح الآن، كان طريـق العـودة شـاقًا وطويـلاً قضيتـه واقفـة عـلى قدمـي في قطـار الدرجـة الثالثـة مـا لا يقـل عـن خمـس سـاعات متواصلـة رغـم أن المسـافة لا تسـتغرق أكـثر مـن سـاعتين بـين بنـي سـويف والقاهـرة لكنـه يقـف في كل قريـة ومركـز يُخيَّـل لي لـو أن قطـة في الطريـق أشـارت لـه سـيتوقف غـير مبـالٍ بتكـدس النـاس داخلـه كأنهـم داخـل علبـة سرديـن محكمـة الغلـق.

هـا أنـا أخـيراً بـين جـدران حجـرتي التـي بحجـم العـالم، لكـن صـوت القطـار مـا زال يطـن في أذني رغـم كل محـاولات الهـروب مـن ضجـة المسـافرين ونـداء البائعـين وصـوت احتـكاك العجـلات بالقضبـان

الحديدية، أروض النوم وأشعر باهتزازات القطار.. أتحايل على النوم وأشعر أنني داخل سفينة وسط البحر تصارع الموج.. أستجدي النوم وأتمنى أن أضع رأسي على حِجر أمي لتعبث بشعري وتحكي لي حكايات الزمن البعيد فأكتب من بين كلماتها أشعاري، وعندما أستيقظ لا أتذكر أي حكايات أتذكر فقط يدها الحنون التي كانت تمررها على جسدي لأنام.

لكني استيقظت بالفعل على صوت صراخ ينبعث من بيت الجيران فجريت مفزوعة لا أدري ما يحدث فوجدت أم مصطفى تصرخ وتبكي وتعلن نبأ طلاقها، هل رأيت أم مصطفى في إحدى زياراتك لي، إنها تلك المرأة البدينة السمراء التي تجلس دومًا أمام باب بيتها بعباءتها البيتي الحمراء ووشاح صغير يغطي نصف شعرها، والنصف الآخر مشعث يعلن عن غضبه الجنوني، تتخيلي تلك المرأة التي لم تنجح في الحصول على الابتدائية متزوجة من مهندس مرموق، ربما يخطر في بالك أنه عامل سباكة ونُطلق عليه لقب

مهنـدس، لا يـا عـزة إنـه مهنـدس معـماري خريـج كليـة هندسـة ويعمـل في إحـدى دول الخليـج ولديـه منهـا ابنـان مصطفـى ومحمـد وهـي أميـة لا تقـرأ ولا تكتـب ولا تجيـد سـوى فـن «الـردح»؛ لـو حـاول أي أحـد الاقـتراب مـن أولادهـا يتعـرض لوصلة مـن الردح لا تنتهـي إلا في صبـاح اليـوم التـالي بعـد أن يستسـلم الطـرف الآخـر ويقـدم بـوادر الاعتـذار.

هـذه السـيدة تتباهـي دائمًـا بحـب زوجهـا لهـا لدرجـة توحـي لمـن يسـمعها بجـرم كذبهـا فنحـن لا نـراه طـوال العـام سـوى مـرة واحـدة، لكـن الغريـب إنـه في هـذه الزيـارة القصـيرة يُظهـر لهـا مـن الـود والحـب مـا يجعلنـا نتعجـب ونتسـاءل بيننـا وبـين أنفسـنا مـا الـذي يحبـه فيهـا؟

هـل هـذا الحـب يا عـزة يـأتي بلا مـبرر بلا أسـباب، بـلا تخطيـط، بـلا تكافـؤ؟! لمجـرد أن إنسـان نشـأ على القيـود رأى أمامـه امـرأة بـلا قيـود فأحبهـا، ربمـا تمنـى أن يعيـش حيـاة مـشرَّدة مثلهـا؟ فهـي ابنـة بائـع الفـول المدمـس الـذي يطـوف الشـوارع بعربـة اليـد بداخلهـا قِـدرة الفـول وهـي تجـري خلفـه تنـادي عـلى الزبائـن.

هـل تمنـى أن يتجـول في الشـوارع مثلهـا ولا يجلـس إلى مكتـب للمذاكـرة ليـل نهـار حتـى يتفـوق ويحصـل عـلى شـهادة جامعيـة تؤهلـه للعمـل في دول الخليـج، أنـا عـلى يقـين أن أهلـه ليـس لديهـم عِلـم بهـذا الـزواج، وربمـا كانـت مجـرد نـزوة شـيطانية انتهـت بعودتـه إلى رشـده أو وجـد أخـرى مناسـبة لـه ولعائلتـه، أشـعر بالشـفقة عليـه وأفكـر كيـف سـينجو مـن غضبهـا.

عجيـب أمـر هـذا الحـب عـدت إلى حجـرتي وأنـا أسـأل نفـسي هـل مـن الممكـن أن أخـوض تلـك التجربـة، أسـتعرض مشـاعري تجـاه كل مـن رأيتهـم في حيـاتي سـواء في النـدوات والمؤتمرات أو بـين الجيران والأقـارب.. سـواء في الجامعـة أو في المواصـلات.. لم أجـد أي إحسـاس داخـلي تجـاه أي أحـد حتـى لـو مجـرد إعجـاب، لم يـأتِ أحدهـم بفكـرة جديـدة أتذكَّـره بهـا أو موقـف فريـد يخلـد اسـمه في ذاكـرتي.

لا أنكـر أن بعضهـم يتسـم بصفـات راقيـة لكنـي دائمًـا أتعامـل معهـم بحـذر وجفـاء مـما جعلهـم

يتجنبــون النقــاش أوالجــدل معــي في أي مواضيــع خــارج الشــعر والثقافــة.

أنــا لا أعــرف مــاذا تعنــي كلمــة حــب وهــل هــو موجــود في الواقــع أم مجــرد قصــص يخلقهــا الخيــال للهــروب مــن قســوة الواقــع، أعــرف إننــي لم أكتــب عن الحــب لأننــي لم أصــادف قصة حــب حقيقــة في حياتي لا أقصــد عــلى المســتوي الشــخصي وإنمــا أقصــد على المســتوى العــام بــين كل مــن عرفتهــم في حيــاتي حتــى مــن يدعــون أنهــا قصــة حــب حقيقيــة تنتهــي بعــد فــترة قصــيرة.. مــا جــدوى هــذا الــكلام الآن! كل مــا أريــده أن أنــام لأســتريح مــن مشــقة الســفر.. ســأنااااااام.

الرسالة السادسة

عــام جديــد في المدينــة الجامعيــة، لا أصــدق أن الإجـازة انتهـت بهـذه السرعـة، لا أشـعر بالزمـن يمـر وأنـا بـين أهـلي وصديقـاتي، اسـتمتعت بمشـاركتي معـكِ في إعـداد مجلـة خطـوة، وسـعدت بالتعـرف عـلى زميلاتـك فاطمـة ونرمـين ونهلـة، أشـعر أن وجـودك في حيـاتي لم يكـن صدفـة، بـل كان بتدبـير مـن اللـه لأسـتمد منـك الأمـل في الحيـاة.

أكـثر مـا لفـت نظـري في صديقتـك نرمـين ميولهـا السياسـية المتطرفـة، حماسـها الزائـد للتغيـير، انحيازها الشـديد لتيـار اليسـار. أنـا أتجنـب النقـاش في تلـك الأفـكار التـي فشـلت في أوطانهـا بعـد أن تفككـت ألمانيـا وانهـار الاتحـاد السـوفيتي كإعـلان صريـح بـأن المبـادئ الماركسـية لا تصلـح للبقـاء وليـس بمقدورهـا أن تواجـه تحديـات العـصر الحديـث، كـما أنهـا لا تتناسـب مـع مجتمعنـا الإسـلامي الـذي يميـل إلى

الاعتـدال، لا أنكـر أننـا نشـأنا عـلى حـب جـمال عبـد النـاصر وشـعرنا ببطولـة السـادات في حـرب ٧٣، لكني لا أرى أي داعٍ للانحـراف لأي جهـة حزبيـة، يكفينـا أن نمـارس حرياتنـا مـن خـلال الكتابـة فنطـير ونحلِّـق في فضـاءات الأحـلام أو نهبـط إلى أرض الواقـع نتجـرع الآلام، يكفينـا أن نمتلـك قلـمًا ورغيـفَ خبـز.

لكـن في النهايـة هـي قناعـات شـخصية تخـص كل إنسـان أعلـم أنَّـكِ كائـنٌ مُسـالمٍ لا تميـلي إلى الأمـور المعقـدة، وكل مـا يجمعـك بنرمـين هـو الطمـوح.

أرى أن كل مـا تقومـين بـه مـع صديقاتـك هـو خطـوة في طريـق المسـتقبل المـشرق.

في غمـرة انشـغالك لم أجـد الفرصـة سـانحة لأستشـيرك في أمـر يشـغل حيـز مـن تفكـيري، هـل سـمعت عـن أسـتاذ عـماد؟ أكيـد وصلـك شيء مـن أخبـاره، إنـه ذلـك الشـاب الميسـور ماديًـا الـذي يلتـف حولـه المثقفـون للاسـتفادة منـه بشـتى الطـرق فأنـت تتعرفـين حـال شـباب المثقفـين مـا بـين شـحاذ ومـشروع شـحاذ لكـن للأمانـة هـذا في سـنوات

الدراسة فقط لكن عند أول خطوة في طريق العمل لا نرى الواحد منهم إلا ونشعر أنه تحول إلى أهم رجل أعمال في مصر.

أستاذ عماد مشهور بحُبّه للثقافة وتشجيعه للمثقفين، نسمع جميعًا عن نقاء روحه ورجاحة عقلة، يتابع أعمالي باهتمام شديد رغم أنني لم أتعامل معه وجهًا لوجه من قبل، كل ما أعرفه عنه أسمعه مصادفة من أصدقائه وأظنه أيضًا يسمع عني ما يثير فضوله للاطلاع على أعمالي، كنت أفكر في إرسال نسخة من ديواني الجديد إليه.

الغريب أن نحترم أشخاصًا لم نلتقِ بهم ولو لمرة واحدة بينما هؤلاء الذين نلتقي بهم كل يوم لا نكن لهم أي مشاعر، والغريب أيضًا أن عودتي للمدينة تشبه بعودة السمك للماء، أشعر أنني أنتمي إلى هذا المكان كأنني وُلدت فيه، ونشأت داخله تربطني به علاقة غامضة فأشتاق إلى مبانيه.. شوارعه.. حديقته.. ثرثرة البنات.. تعليمات المشرفات.. حتى البوابة التي أمر منها كل يوم أشعر أنني أعبر منها إلى عالم آخر.. عالم مليء

بالحياة، بالأحلام؛ فهنا ألتقي بالصديقات، وهنا أخطط للمستقبل وهنا أكتب أشعاري، وهنا أقرأ لصلاح جاهين وأمل دنقل ومحمود درويش، لكني اتجهت في الفترة الأخيرة إلى قراءة أعمال الأديبات والشاعرت أو ما يسمونه بالأدب النسوي لا أدري مَن الذي اخترع هذا المصطلح وإن كنت أستشعر أن كتابات المرأة لها مذاق خاص فهي تميل إلى مشاعر الحزن، ربما يعود ذلك إلى طبيعة المرأة المرهفة الحس.

لعلَّ هذه هي النقطة التي نلتقي فيها على أرض واحدة، فكما أطلقوا عليَّ «شاعرة الموت» أرى أيضًا أن كل حروفك تشجو بالحزن حتى بعد مفاجأة خطوبتك لم تتغير نبرة الحزن عندك، أعرف أن إيهاب شخص محترم لكن كثيراً ما أتساءل بيني وبين نفسي هل سيستطيع أن يمنحها السعادة؟ هل يمكنه احتواءها.. هل سيستطيع أن يمنحها الحب الذي تحتاجه؟! حب بقدر العالم، بقدر قدرتها على البقاء، عندما أنظر إليك وأنت معه أشعر بثمة شيء يجمع بينكما لعله نقاء الروح، أما اختلاف الميول والاهتمامات بينكما لن تشكل عقبة في طريقك.

أرى ذلـك القلـق في عينيـك وأرى حسـابات كثـيرة في عقلـك، وأشـعر بالخـوف الـذي يمـلأ روحـك، ولا أرى داعــي لــكل هــذه المخــاوف فلتكــن تجربــة يــا صديقتـي، إن حياتنـا مـا هـي إلا مجموعة مـن التجارب فلتكـن هـذه واحـدة منهـم أو قصـة طويلـة سـتكتبينها وأنـت بطلتهـا، أنـت مـن تضعـين البدايـة وتخططيـن لتتابـع الأحـداث ثـم تنتقـي النهايـة بدقـة أو تتركـين النهايــة مفتوحــة كــما اعتــدتِ في كل مــا تكتبــين، أعــرف مــا قالتــه منــال صديقتنــا وهــز مشــاعرك "إن شـعرتِ أن البحـر سـيغرقك اهـربي، إنهـا روح واحـدة وحيـاة واحـدة لا نملـك غيرهـا، فكـري جيـدًا قبـل أن تقدمـي عـلى شيء تدفعـين عمـرك ثمنًـا لـه" أعـرف أن القـرار صعـب لأنـك لم تخـوضي تجـارب مـن قبـل، وأتذكـر أيضًـا مـا قلتـه لمنـال يومهـا "إن تخليـت عنـه لأننـا نختلـف في الأفكار كيـف سـيثق في بنـات حـواء بعـد ذلـك بـل كيـف سـيثق في ذاتـه؟» ردٌّ نبيـلٌ مـن إنسـانة مرهفـة المشـاعر. وتأكيـدا لكلامـك أقـول لـك خـوضي التجربـة اكـسري بهـا جمـود الواقـع الـذي لا يتغـير، والحصـار الـذي تحـاصرك بـه أمـك فلا تسـمح

لـك بالذهـاب إلى أي مـكان خـارج حـدود المدينـة، أعـرف أنهـا تتـوق إلى ذلـك اليـوم الـذي تسـلمك فيـه لآخـر يتحمـل مسـؤوليتك، أرى في إيهـاب بارقـة أمـل لأحلامـك المؤجلـة.

ليتنـي أنـا وأنـت مثـل باقـي البنـات اللـواتي لا يفكـرن سـوى في الـزواج أقـصى أمنياتهـن أن يرتديـن الفسـتان الأبيـض، ليتنـي أسـتطيع النـوم دون أن أفكـر في الغـد وفي متاعـب النـاس، ليتنـا لا نحمـل همـوم العـالم فـوق عاتقنـا ونكتفـي بالاهتـمام بأناقتنـا.. باختيـار ألـوان ملابسـنا أو حتـى بلفـة الطرحـة كـما تفعـل عفـاف صديقتـي في السـكن تقـضي أمـام المـرآة سـاعتين كاملتـين لتلـف الطرحـة حـول رأسـها أو لتنـزع شـعرة غافلتهـا ونبتـت في وجههـا أو لترسـم عينيهـا بقلـم كحـل!

أتمنـى أن أسـير في الشـارع دون أن أنظـر في عيـون النـاس أو أقـرأ آلامهـم، كل البنـات عندمـا يـسرن معـي في الطريـق مـن الجامعـة إلى السـكن لا تتوقـف تعليقاتهـن عـن أحـدث صيحـات الموضـة أو ألـوان المكيـاج ويقفـن كثـيراً أمـام عارضـات المحـلات

ليشاهدن الموديلات الجديدة ومدى تناسُق الألوان ويتناقشن حول الأسعار، لكن عيونهن لم تنشغل يومًا ببائعة المناديل التي تجلس بجوار الرصيف، ولا بعامل النظافة الذي يقف تحت أشعة الشمس الحارة لجمع القمامة، ولا بالعجوز الذي يتعثر في خطواته لأنه لا يجد من يجلب له طلباته، ولا بالموظف البسيط الذي يسير تائهًا يحسب كم جنيهًا تبقى معه وكم جنيهًا سيقترض إلى نهاية الشهر ولا يشعر بالسيارة التي كانت وشك دهسه إلا حين ينهال عليه السائق سبابًا.

نماذج كثيرة لا أستطيع حصرها، لكن عقلي منشغل بهم، أفكر في حلول لمشاكلهم، إذا لم يشعر الإنسان بآلام غيره فلماذا يعيش؟ هل يعيش ليأكل ويشرب وينام فقط، هل هذا هو هدف البنات أم هدف الجميع؟ بل هو جل انشغالهم "السعي خلف لقمة العيش" أو القدرة على الحياة والتعايش مع الواقع أيًّا كانت مرارته؛ أحلامهم بسيطة ورغم ذلك عثيرة.

عــزة، أنتظــر منــك رســالة تخبرينــي فيهــا عــن أحوالــك. منــذ ســافرت وأنــا قلقــة، أخــاف عليــك مــن نقائــك مــن بيــاض قلبــك، لا زلــت تعيشــين في عالمــك الطفــولي لا تدركــين أن الحيــاة يوجــد منهــا جانــب آخــر هــو الجانــب المظلــم أو كــما يطلقــون عليــه الوجــه الآخــر مــن الحقيقــة، لــن أوصيــك عــلى نفســك اهتمــي بصحتــك نامــي جيــدًا وكلي جيــدًا، فقــد أخبرتنــي أمــك أنــك تمتنعــين عــن تنــاول الطعــام بالأيــام، أنــت أعلــم منــي بــأن هــذا البــدن في حاجــة إلى الوقــود الــذي يحركــه.

تعلقــي بالأمــل لعــلَّ الحلــم يكــون قريبًــا، وأرجــوكِ لا تتوقفــي عــن الكتابــة لي لأي ســبب فرســائلك هــي التــي تمــدني بطاقــة الحيــاة.

الرسالة السابعة

كـما عـودة غريـب لأرض الوطـن، كـما صرخـة وليـد لحظـة ولادة، كـما الحلـم الـوردي في عقـول البنـات، كـما صفـاء المطـر لحظـة انفلاتـه مـن رحـم سـحابة، كان وجهـه! لم يطـرف عينيـه عنـي أثنـاء جلسـة مناقشـة ديـواني الجديـد، سـمعت آراء النقـاد والجمهـور ولم أسـمع منـه سـوى الصمـت.. نظـرات الامتنـان لدعـوتي لـه ونظـرات الرضـا عـن كل مـا يقال عنـي.

لم يـدُر حديـث بيننـا في هـذا اليـوم أكـثر مـن عبـارات الترحيـب والمجاملـة، احتفـى بـه جميـع الحضـور فأغلبهـم مـن أصدقائـه وممـن يـترددون عـلى بيتـه ليـل نهـار.

لا أدري لمـاذا شـعرت أن ثمـة شـيئًا سـيحدث بيننـا لا أعـرف مـا هـو لكنـي أدركـت أنـه أي شيء غـير أن يكـون حبيبـي أو خطيبـي أو زوجـي! فقـد انتهـت كل

هـذه المصطلحـات عنـدي وفقـدَتْ صلاحيتهـا منـذ حادثـة عينـي، ليـس تعاليًـا عـلى الجـزء الناقـص منـي كـما يبـدو للآخريـن، لكنـي لـن أحتمـل أن يـأتي رجـل بقوتـه ليشـعرني باكتمالـه ويبحـث عـن أي شيء ناقص في أي شيءٍ ليعايـرني بـه كـما يعايـر أبي أمـي بجهلهـا، لم يكـن ذنـب أمـي أن أهلهـا لم يدخلوهـا المـدارس، ولم يكـن ذنبـي أن فقـدت أشـياء كثـيرة عـلى غفلـة منـي هـي في مجموعهـا تشـكِّل طفولتـي وتؤثـر في شـبابي وتتحكـم بأنوثتـي.

❀

لأول مـرة أشـعر أننـي أمـام رجـل غـير عـادي، رجـل يحمـل همـوم العـالم في جعبتـه ويمـضي كالقديسـين، يحـدث لمـرة واحـدة في الحيـاة عندمـا نـرى أشـخاصًا نتنبـأ بأنهـم سـيكون لهـم أدوار في حياتنـا ربمـا أدوار رئيسـية أو مصيريـة، وفي النهايـة ربمـا نرتبـط بهـم بخيـوط تشـدنا نحوهـم في عمليـة مد وجـذر، وتحـضر كل الاحتـمالات أمامنـا، ربمـا يكـون صديقًـا وفيًّـا أو أخًـا مخلصًـا أو قـدوة أو قارئًـا واعيًـا، والاحتـمال الأخـير ربمـا يكـون مختلفًـا فـأرضى بـه

زوجًا ويرضى بي زوجة، فأتخيل نفسي ذات يوم سأصبح أمًا وأتخيله طفلي الوحيد.

سأبوح لكِ بهذا السر هنا على الورق؛ لأنني لن تواتيني الشجاعة أن أجلس أمامك وأنت تصوبين عينيك في عيني، سأقص لك ما حدث:

ما حدث لم يكن في خيالي.. لم أخطط له أو حتى كنت أنتظره؛ فبعد انتهاء الندوة أصرَّ أن يعزمني أنا ومجموعة من الأدباء على العشاء كنوع من الاحتفال أو الاحتفاء بتعارفه عليَّ. قبلت الدعوة على أن الموضوع سينتهي بشطيرة طعمية وكوب من الشاي على أي مقهى لنتناقش حول بعض القضايا الشائعة ثم يمضي كل واحد في طريقه ممتنًا للآخر بهذا اللقاء العابر، لكني فوجئت أنه يقودنا إلى مطعم فاخر ويترك لنا حرية اختيار أصناف الطعام.

في البداية شعرت بالحرج الشديد، فلم أكن أتخيل نفسي في يوم من الأيام أجلس في مكان كهذا، لكنها لحظات قليلة وتلاشى كل الخجل..

شـعرت أننـي أعرفـه منـذ زمـن بعيـد وأنهـا ليسـت المـرة الأولى التـي أجلـس فيهـا معـه وأن كل الجمـل والكلـمات التـي نطـق بهـا سـمعتها منـه مـن قبـل.

أتعرفـين؟ نحـن لا نمنـح الآخريـن سـوى فرصـة واحـدة ليحتلونـا.. نعلـن أمامهـم الاستسـلام التـام دون أدنى مقاومـة.. منحـة مجانيـة لمـرة واحـدة في الحياة.. فرصـة واحـدة نـترك فيهـا الآخـر يقتنصنـا! وتفاجئنـي الدهشـة كأم يفاجئهـا طَلَـق الـولادة هـل هـذه هـي أنـا؟ هـل تحولـت في لحظـات معـدودة إلى أنثـى مكتملـة تجلـس أمـام رجـل يُقحـم أفـكاره في رأسـها بـلا أدنى مقاومـة! مـا الـذي فعلـه فيَّ هذا اللقـاء؟ لا أتذكـر.. كل مـا أتذكـره أنـه ظـل طـوال الوقـت يتحـدث؛ حـكى عن أمـه وأبيـه حتـى لحظـة موتهـما.. حـكى عـن معاناتـه مـع الوحـدة، وعـن علاقتـه بالمثقفـين والأدبـاء، ثـم انتقـل إلى الحديـث عـن طبيعـة المـرأة وحقـوق المـرأة حتـى اقتنعـت أن شـخصية قاسـم أمـين تلبسـته.

كان هـذا هـو اللقـاء الأول ولم يكـن الأخير.. أشـعر أنهـا بدايـة جديـدة لحيـاة أخـرى قادمة.

الرسالة الثامنة

عزيزتي عزة،

كان يـوم زفافـك يومًـا رائعًـا. كنـتِ أجمـل عروسـة عـلى وجـه الكـرة الرضيـة، إنهـا السـعادة يـا صديقتـي السـعادة التـي تضفـي جـمالاً عـلى الـروح وينعكـس بريقهـا عـلى الوجـه.

ورغـم سـعادتي التـي لا أسـتطيع وصفهـا وأنـا أراك في ثـوب الزفـاف الأبيـض إلا إنهـا كانـت ليلـة مختلفة، لعلهـا تشـبه تلـك الليـالي التـي يـراودني فيهـا شـعور الفقـد والحنـين لأشـياء قديمـة فأخـشى أن تنشـغلي بحياتـك المسـتقبلية وتنتهـي صداقتنـا عنـد هـذا الحد.

أنـت تعلمـين أنـك جـزء أسـاسي مـن عالمـي، بـل إننـي أسـتمد منـك طاقـة الحيـاة لذلـك لا أسـتطيع مجـرد تخيـل بعـدك عنـي وانشـغالك التـام ببيتـك وزوجـك وأولادك فيـما بعـد، ظـلَّ هـذا القلق يسـاورني

لمدة عشرة أيام كاملة كلما ذهبت إلى النوم أتخيل أنني سأذهب إلى بيت أبيك ولن أجدك، وسأذهب إلى قصر الثقافة ولن أجدك.. عشرة أيام كان النوم فيها مستحيلاً ولن أخفي عليك أنني لم أستطع الذهاب إلى الجامعة، لم أستطع احتمال فكرة أنك ستنسينني وتنشغلين بحياتك الجديدة، بالطبع أتمنى لك السعادة والمزيد من السعادة لكنه مجرد هاجس القلق.

وكأنك كنت تقرئين المعارك التي تدور في رأسي وتشعرين بهزائم روحي؛ فوجئت بزيارتك لي في المدينة أنتِ وزوجك، جئت كل هذه المسافة من بني سويف إلى القاهرة في أول خروج لك بعد الزواج لتقولي لي أنا هنا ولن أذهب بعيدًا عنك، شعرت يومها بدبيب الحياة يعود إلى جسدي، بالأنفاس تموج في صدري بل إنني سمعت دقات قلبي تنتظم كما كانت في سابق عهدها.

هؤلاء الحالمون الذين لا نصادفهم سوى مرة واحدة في العمر. .عمر مليء بالانكسارات.. فائض بالأوجاع.. مكتظ بالعثرات والحُفَر والمطبات..

عمر تصبغه الألوان القاتمة الأسود والأزرق والرمادي؛ هؤلاء الحالمون يحفرون أسماءهم في الذاكرة فلا نمحوهم بمحض إرادتنا ولا ننساهم بفعل عوامل التعرية، هكذا أنتِ يا عزيزتي دائمًا ما كنتِ نقطة الضوء الوحيدة في حياتي.

تركتك تستعدين لحياتك الجديدة ولم أخبرك بتتابع الأحداث السريعة بيني وبين عماد؛ كأنه كان يبحث عني ووجدني فجأة في طريقه؛ فهو يحاصرني في كل الأماكن التي أذهب إليها ولا ينقطع اتصاله وسؤاله عني، يوصي كل من يعرفه عليَّ ويرسل لي السلام مع كل من يراني، حصار يشبه حصار قلعة منيعة لكن مع إحكامة وشدته تنهار إمارة القلعة وتستسلم، أو تسلّم بفكرة أن هناك ثمة من يستحق أن تمنحه مفاتيحها!

فتحت قلبي لأول طارق، لأول تجربة حب في حياتي أعلم أنها الأخيرة، إن نجحت فستتحول حياتي تمامًا، وإن فشلت فسأعود إلى جدران وحدتي وأغلقها على نفسي.. رغم سعادتي بوجوده في حياتي إلا إن ثمة حواجز كبيرة أولها وأخرها

فـرق المسـتوى الاجتماعـي؛ فأنـا ابنـة رجـل فقـير، اعتمـدت عـلى نفـسي لأشـبع طموحـي في التعليـم أمـا هـو فمـن عائلـة عريقـة ورث عـن أبيـه مـا يضمـن لـه أن يعيـش أمـيراً إلى آخـر العمـر.. أنـا لا أملـك الكثـير مـن الملابـس وربمـا أرتـدى ثوبًـا واحـدًا طـوال العـام وهـو يهتـم بأناقتـه وعطـره بشـكل مبالـغ فيـه، لدرجـة تشـعرني بالحـرج وأنـا معـه.

كنـت أتمنـى أن يـدق قلبـي لرجـل فقـير مثـلي؛ نسـير معًـا في الشـارع، نـشرب شـايًا في المقهـى، نـأكل وجبتنـا اليوميـة مـن عنـد عـم سـيد بائـع الفول! نفـترش الرصيـف بأمنيـات التوحـد، لكـن هـا أنـا أتعلـم الاهتـمام بأناقتـي، أعتـاد الجلـوس في الأماكـن الفخمـة، أتعلـم الانتظـار عـلى طاولـة الوقـت فأنتظـر زياراتـه لي في الجامعـة بشـغف، وينتظـر عـودتي إلى بنـي سـويف بقلـق ولا يكـف طـوال الوقـت عـن الحديـث، لا أشـعر بالزمـن يمـضي وهـو معـي ولا أدري هـل يسرقنـي الوقـت أم أنـا مـن أسرق لحظـات السـعادة؟!

عندمـا نفـذ رصيـد ذكرياتـه طلـب منـي أن

أستهلك ذكرياتي في الحكي، لكني لم أستطع البوح عن الجزء الأسود منها، كيف أقول له أن عيني ضاعت لأن أهلي فقراء وأهملوا في علاجي، كيف أقول له كل ما قلته لك من قبل ولن أقوله لأحد من بعد، كيف أكشف عن كل هذا الظلام الذي واريته بابتسامتي الباهتة وألوان المساحيق الكاذبة!!

كيف أتحمل شلالات الشفقة التي سيجرفني بها إن عرف ما أهرب به من نفسي!

لم أستطع كشف أسرار حياتي، كل ما فعلته أنني حدثته عن مأساة هند صديقتي في السكن وعن مغامراتها الشقية وجرأتها التي تجلب لي المتاعب فأجبر نفسي على الدفاع عنها أمام المشرفات وأعلل غيابها عن السكن بأسباب وهمية.

وكمصلح اجتماعي أو طبيب أمراض نفسية طلبَ مني أن يراها كي ينقذ فيها ما يمكن إنقاذه.. هل كنت أحبها لهذه الدرجة، أم أن الشفقة عليها تملكتني؟ لا أدري، كل ما أعرفه أنني نقلت إليه

رغبتي في إنقاذها مما هي فيه فأصبح همي وهمه أن نلقي إليها طوق النجاة.

الحياة أعباء يا صغيرتي، تشبه سلمًا في الصعود، كل درجة تسلمنا للأخرى ونحن نواصل بتعب وجهد نحاول الوصول للقمة لكن الحقيقة أننا نصل إلى قمة التعب أو قمة الفشل.

أراك تندهشين من متناقضاتي، كيف أخبرك بأنني أمرُّ بأول تجربة حب وفي نفس الوقت أنقل إليك شعوري بالعناء؛ هكذا أنا، لم أعرف السعادة في حياتي بعيدًا عن الحزن.. لم أفرح بفستان العيد كباقي الأطفال ولا بأول مبلغ مالي كسبته من عملي في الخياطة، لم أفرح بأول جائزة حصلت عليها من الشعر ولا بحفل التكريم الذي كُرمت فيه ضمن الفائزين، لم أشعر بالفخر لأن اسمي يتردد في الوسط الثقافي؛ أشعر دائمًا أن كل البدايات السعيدة تنتهي وتتلاشى ونعود إلى ممارسة الحزن والوجع الألم.

بالأمس عانيت الأرق كثيراً وجفاني النوم وأنا

أفكـر في أمـر عـماد، هـل سـينتهي مـا بيننـا بالـزواج أم إنـه مجـرد تعـارف سريـع في علاقـة عابـرة، هـل سـينجح في تغيـير صـورة الرجـل التـي حفرهـا الزمـن في رأسي وهـل سـأنجح في تغيـيره وأسـتطيع إقناعـه بحيـاة البسـاطة التـي أعيشـها أم هـو مـن سـينجح في تبديـل جلـدي ويدخلنـي في دائرتـه، ظللـت أتقلـب في فـراشي الحديـدي حتـى آلمنـي جسـدي فنهضـت، خرجـت مـن حجـرتي وسرت في الردهـة الطويلـة التـي تنتهـي بنافـذة صغـيرة تطـل عـلى سـور المدينـة الجامعيـة، يظهـر مـن خلفـه جـزء مـن الشـارع، كأن العـالم كلـه ينتهـي بنهايـة هـذا الممـر حيـث يلتقـي الصمـت والسـكون بأطـراف الشـارع الصاخـب، نقطـة تشـبه التقـاء السـماء بـالأرض في نقطـة أبديـة.

في هـذا المـكان أجـيء عندمـا يضيـق بي العـالم وأرغـب في الجلـوس وحـدي أو لإعـادة حسـاباتي مـع نفـسي، في هـذه الليلـة لم أجـد الهـدوء الـذي أريـده، كان ثمـة ضجيـج يـأتي مـن الشـارع، أصـوات كثـيرة ميـزت مـن بينهـا صـوت مـوال شـعبي يـأتي

مـن كشـك قريـب موجـود خلـف السـور، انتهـى إلى سـمعي تلـك الكلـمات:

«قالت نعيمة غرامي يا حسن شبابيك

بعتت له منديل وأسباب الغرام منديل

والحب كله اتصل واللي حصل منديل

وفي قلته يا ليل فين نار الغرام شبابيك»

إنـه مـوال حسـن ونعيمـة بصـوت محمـد طـه، نعيمـة التـي هامـت عشـقًا بحسـن، وحسـن الـذي تغنـى بحـب نعيمـة لكنـه نـال جـزاء الحـب والوفـاء فقتلـه أبوهـا الـذي يريـد أن يحافـظ عـلى مالـه وعـلى ابنتـه وعـلى سـمعته، ضحـى بشـباب حسـن وقلـب نعيمـة.

عندمـا شردت في النهايـة المأسـوية لقصـة حسـن ونعيمـة طـرأ عـلى ذهنـي سـؤالٌ لم أفكـر فيـه مـن قبـل: لمـاذا كل قصـص الحـب التـي ورثناهـا عـن أجدادنـا تنتهـي نهايـات مأسـوية بمـوت البطـل أو البطلـة، أو تنتهـي بالفـراق واللـوع، لم أعـرف قصـة حـب اسـتمرت حتـى النهايـة السـعيدة، ربمـا لـو

تزوجـوا لمـا صـارت قصـة حـب وكانـت أشـبه بـأي قصـة عاديـة لاثنـين التقيـا صدفـة، تعارفـا، تبـادلا المشـاعر تزوجـا ثـم انتهـت بالرفـاء والبنـين، ثـم انطفـأت المشـاعر وتحـولا إلى أشـخاص عاديـين ونُـسي أمرهـما ولم تتناقـل الأجيـال قصتهـما ولم تحكِهـا الألسـن؛ كل قصـص الغـرام التـى تركهـا الأجـداد معـادة ومكـررة تنتهـى بمـوت أصحابهـا!!

إذًا مـا هـو الحـب، وهـل هنـاك فـرق بـين الحـب والـزواج؟ هـل الحـب يـأتي أولاً وبعدهـا الـزواج، أم الـزواج أولاً وبعـده يـأتي الحـب بحسـن المعاملـة.

منـذ كنـت صغـيرة وأمـي تحـذرني مـن الرجـال، وعندمـا أخبرتهـا بتلـك البقـع الحمـراء التـي تـأتي كل شـهر وتنبـأ البنـت بأنهـا انتقلـت مـن مرحلـة الطفولـة إلى مرحلـة النضـج والشـباب رأيـت في وجههـا ملامـح القلـق والتوتـر وجذبتنـي مـن يـدي ودخلـت معهـا حجـرة النـوم في سريـة وهـي تتلفـت خلفهـا خشـية أن يتتبعهـا أبي وقالـت لي مـا لم أسـمعه طيلـة حيـاتي:

«انتي كبرتي حاسبي على نفسك من الرجالة لو قعدتي جنب راجل هتحبلي لو سلمتي على راجل هتحبلي، لو غصب عنك هتتعاملي مع راجل يبقى من بعيد لبعيد تخلصي مصلحتك وتجري من قدامه.»

أرجو ألا تضحكي فقد صدقتها وقتها، وكنت أتعامل مع الرجال بفزع وأفر من أمامهم بطريقة تثير السخرية، وظلت هذه الفكرة تسيطر على عقلي حتى درست في الثانوية العامة جهاز التناسل وعرفت كيف يحدث الحمل ومتى، وقتها قضيت يومًا كاملاً وأنا أضحك على نفسي.

لكن كل ذلك لم يمنع قناعاتي عن الحب، فالحب جزء من المشاعر الإنسانية السامية.. منطقة ضعف لأي أحد مهما بلغت قوته.. لكني رغم ذلك على يقين أن المرأة التي تسلم مفاتيح قلبها لرجل هي امرأة ضعيفة أو مسكينة لأن هذا الآخر يستطيع في أي وقت تدميرها.

رغم كل هذا الموروث الاجتماعي والثقافي عن

علاقة الرجل والمرأة، تفتَّح قلبي لعماد وشعرت ببكارة الحب؛ حب لا يشبه حبي لأبي ولا حتى لأخي الوحيد، إنه شيء مختلف، شيء يجعلني أشعر برغبة عارمة في رؤيته أو حتى الحديث عنه بل مجرد ذِكر اسمه أمام الآخرين يشعرني بالسعادة فأتحدث عنه كملاك سقط من السماء وعاش على الأرض، كجني مؤمن لم يمارس الخطيئة، كأفلاطون جاء من مدينة خيالية سكانها أخيار، كشخص متفرد ليس له مثيل!

لم أعد أفكر في النهايات كل ما يشغل عقلي هو كيف ستتطور البدايات، كيف ستتحول القصة التي بيننا إلى شكل إنساني فريد. أقول لك سرًّا؟ لن أخطط لشيء سأترك الأحداث تسير وحدها وتحدد نهاياتها وحدها، وسأظل أنظر وأشاهد وأراقب كأني غريبة أنظر إلى نفسي وأدوِّن ردود أفعالي.

جلست هناك حيث ينتهي الممر إلى فتحة ضيقة يظهر منها جزء من السور من خلفه الشارع، حيث يأتي موال حسن ونعيمة، جلست على المقعد الخشبي الذي أضعه خلسة هناك لأستريح عليه كلما ضاق بي العالم، هبت نسمة هواء باردة لامست وجنتي فسرَتْ في جسدي قشعريرة خفيفة وذهبتُ في غفوة وما بين النوم واليقظة رأيت نعيمة وهي تقف في الشباك وسط البنات تطل برأسها على حسن المغنواتي المليح وتلتقي النظرات وتتحدث العيون بلغة الصمت.. شبك قلبها بصوته المليح وشبكت قلبه بوجهها الصبوح، ألقت إليه بمنديلها فطَارَ عقله وأخذ يغني من الحب مواويل ونعيمة تبحث عنه في الخيال وبين حكايات البنات تسأل عن آخِر غنوة تغني بها، وآخر خطوة لمست أرضه ثم يأتي عطوة ابن عمها يسرق الحلم يطمع فيها وفي مال أبيها فتهرب إلى حسن، يخبئها داخل قلبه بين ضلوعه ويذهب إلى أبيها ليطلبها للزواج فأستفيق مفزوعة على مشهد الدم الذي يسيل من حسن

وسـط الطريـق، بينـما الأب ينـزع ابنتـه المتشـبثة بضلعـه الأيـسر وهـي تـصرخ "اصحـي ياحسـن" لكنـه لا يـرد فيـذوب جمالهـا في الحـزن والدمـوع.

لم أشـعر أننـي نمـت فعـلاً إلا عندمـا لسـعتني حـرارة الشـمس في وجهـي فنهضـت لأكتـب إليـك لعـلي أفهـم كل مـا مـرَّ بي مـن أحـداث.

الرسالة التاسعة

مـا زلـت في الجامعـة، في عامـي الرابـع، وكل الذيـن أحبهـم هنـاك في مدينتـي عـلى أطـراف الصعيـد بدايـات محطـات الرحيـل، ولم أعـد أكتـب رسـائل لـك وحـدك بـل أكتـب أيضًـا إلى نفـسي، أدوِّن تفاصيل يومـي في القاهـرة كي أتخطـى حواجـز الغربـة وأضفهـا إلى دفـتر يوميـات الطفولـة.

أسـتعد لامتحانـات آخـر العـام لكنـي قلقـة عليـك لا أدري لمـاذا، أعـرف أن شـهور الحمـل الأولى صعبة، خاصـة مـع وجـود مشـاكل بـين الزوجـين لكـن يجـب أن تعـرفي أن سـنة أولى زواج مـن أصعـب سـنين العمـر فهـي فـترة حرجـة كفـترة النقاهـة بعـد جراحـة خطـيرة تعتاديـن فيهـا عـلى الآخَـر؛ طباعـه المختلفـة عنـك.. أهلـه المختلفـون عـن أهلـك.. أفـكاره التـي لا تتوافـق مـع أفـكارك حتـى ألوانـه المفضلـة لا تتفـق مـع ذوقـك كأنـك تكتشـفين أنـك في عـالم مغايـر غـير الـذي جئـت منـه.

فلنتجاوز كل تلك الصعاب فلنعتبره سببًا في تحقيق حُلم من أحلامك بأن يكون لديك طفل يمسك بيديك وأنت تنتقلين من رصيف إلى آخر تبحثين لنفسك عن ممر لا يشاركك فيه أحد لكنك تتقبلين السير بمحاذاة الأطفال وتتمنين أن تمسكي بأياديهم جميعًا، أعرف تلك الرغبة الدفينة داخلك في الأمومة فأنت لديك رصيد منها يكفي لتمنحيها مجانًا لكل أبناء إخوتك.

صدقيني، أنا أشتاق لهذا الطفل أكثر منك أشعر أنه ابني قبل أن يكون ابنك، ابن الحلم الذي رسمناه سويًّا.. الطفولة التي لم نعشها والمتع التي لم نعرفها؛ فأتخيل أننا نسير على شاطئ البحر ونتقاذفه ككرة شقية.

دائمًا ما تقول لي هند داخلك أمومة طاغية تكفي كل أطفال العالم، لا أنكر هذه الأمومة خاصة تجاهك أنت وهند، فأنت ابنتي التي لم أنجبها وهي ابنتي التي تكفلت بها كطفلة يتيمة ألقاها القدر في طريقي.

رغـم قلقـي عليـك أعـرف أنـك سـتتجاوزين كل الصعـاب، أعـرف أن قدرتـك عـلى الاحتـمال أكـبر مـن توقعـاتي.. أعـرف أنـك تحملـت مـا هـو أكـثر مـن ذلـك وأنـك سـتحلين مشـاكلك كلهـا.

وأعـرف أننـي أنـا وأنـت وكل أنثـى في العـالم لا تملـك سـوى قلـبٍ واحـدٍ تخبئـه مـن أجـل رجـل واحـد، لكـن مـا لهـذا العـالَم يحمِّلنـا مـا لا طاقـة لنـا بـه!

لذلـك تحمـلي.. تحمـلي مـن أجـل هـذا القـادم الـذي انتظرنـاه في محطـات أحلامنـا حتـى تحقـق.

لم أخـبرك أننـي فصلـت لـك فسـتان حمـل يليـق بـك أتخيلـك وأنـت ترتدينـه سـيكون جميـلاً بـك بمجـرد انتهـاء الامتحانـات سـأحضره لـك.

أيـام المدينـة الجامعيـة تشـبه مـدة التجنيـد، أيـام تمـر بطيئـة وكئيبـة وشـاقة خاصـة عندمـا تشـتاقين إلى أشـخاص في مـكان آخـر مـن العـالم الواسـع.. لكنهـا تمـر ويحـدث مـا لم أكـن أتوقعـه؛ المأسـاة الضاحكـة، تخيـلي يتعلـق عـماد بهنـد بعـد عـدة لقـاءات معهـا

ومحـاولات فاشـلة منـه لاحتوائهـا وتحليـل أسـباب مشـاكلها، بـل تطـوع بحلهـا رغـم رفضهـا التـام لتدخله في حياتهـا، وتطـور الأمـر إلى أن يطلـب الـزواج منهـا بحجـة انتشـالها مـما هـي فيـه، اعتبرهـا نهايـة منطقيـة لقصـة حـب كانـت عـلى وشـك البدايـة لتنتهـي بهـذه الطريقـة السريعـة.

قلبـي المكسـور لم تكتمـل فرحتـه، انشـطر مـع أول وآخـر تجربـة حـب، وثقـت فيـه لدرجـة عـدم توقُّـع الخيانـة لكـن مـا يؤلمنـي ليـس الخيانـة كل مـا يؤلمني هـو عـدم اعترافـه بخطئـه بـل إنـه يفتخـر بحالـة النبـل الإنسـاني التـي تلبسـته.

لا أعـرف مـا الخطـأ الـذي ارتكبتـه، لقـد أشـفقت عـلى صديقتـي بسـبب ظروفهـا التـي آلمتنـي أكـثر مـن ظـروفي وعرَّفتهـا عـلى عـماد الـذي كان مـن المفروض أن يكـون حبيبـي ثـم زوجـي المسـتقبلي لكنـه يتجاهـل وجـودي وتأخـذه الشـفقة بهـا لدرجـة أن يحبهـا ويتقدم للـزواج منهـا، لـو شـاهدت هـذه القصـة في فيلـم عربي لمـا صدقتهـا أو لغضبـت مـن جميـع الأبطـال، تلـك السـاذجة التـي لم تعـرف كيـف تحافـظ عـلى حبيبهـا، وذلـك البطـل الـذي تقمـص دور المنقـذ.

كان يجب أن أنسحب بهدوء أن أتركه يقرر.. يختار.. يقارن.. يميز.. يعرف كما يشاء، حتى يأتي الوقت الذي نفهم فيه لماذا حدثَ ما حدثَ ومَن منَّا المخطئ ومن المصيب، سأتركه يفعل ما يشاء ليس لدي وقت أو جهد للألم، سأفرغ عقلي للامتحانات.. يجب أنا ينتهي زمن الامتحان وينتهي ذلك الاختبار القاسي الذي مرَّ بي.. لا بُدَّ أن ينتهي وأعود إلى نفسي وإلى مدينتي.

وباقي القصة لم أسعَ خلفها لمتابعة أحداثها؛ فقد جاءت إلى عندي، أخبرتني هند بأنها رفضته ليس لعيب في شخصه لكنها تخشى من تكرار تجربة أبيها وأمها وما زالت مصرة على تكرار الرسوب وما زالت مستمرة في الخروج والسهرات، أما عماد فقد حاول رأب الصدع الذي حدث بيننا.. حاول يا عزة لكنه لم ينجح ولم أنجح في هدم حواجز الخوف، ولم أستطع فتح أبواب قلبي بعد أن أغلقتها للمرة الأخيرة.

ندبة عميقة في قلبي لكنها ستمر ككل الأشياء التي مرت من قبل، أحتاج إلى بعض من الصبر،

ودهـان التحمـل وحبـوب مـن عِـزَّة النفـس لأعـود كما كنـت مـن قبـل.

تركـت الخطـاب عـدة أيـام حتـى أسـتعيد قـوتي، وعُـدت بعـد اتصالـك أمـس الـذي زاد مـن حـزني، روحـك الشـفافة شـعرت بمـا حـدث لي فاتصلـتِ لتطمئنـي عـليَّ وتشـجعيني عـلى المذاكـرة، وعندمـا سـألتيني عـن عـماد تهربـت مـن الإجابـة كأننـي أهـرب مـن نفـسي لا منـك. لا أسـتطيع أن أواجهـك بمـا يمـوج داخـلي أو تلمحـي في روحـي كل هـذا الانكسـار لكنـي أخذتـك في دائرتـك وسـألتك عـن الأمـير القـادم وعرفـت أنـك في نفـس التوقيـت كنـت تتألمـين وتتوجعـين مثـلي.

لم أكـن أعـرف أن علاقتـك بإيهـاب سـاءت إلى هذا الحـد، وأنـه عنيـد لدرجـة الصخـر وأن حزنـك تضخـم لدرجـة حـدوث إجهـاض، لا أدري كيـف فرطـتِ في حُلمـك بهـذه السـهولة؛ حلـم الأمومـة الغريـزي داخلـك وحلمـي أنـا أيضًـا. كنـت أنتظـر اليـوم الـذي

سـأحمل فيـه طفلـك بفـارغ الصـبر، لكـن لا بـأس يـا صغـيرتي لم تكـن سـوى محاولـة واحـدة مـا زال أمامنا محـاولات كثـيرة وفـرص أخـرى، لـن نيـأس والحياة لا تخلـو مـما يعكـر صفوهـا.

علمونـا في الجامعـة أن الشـعراء يموتـون ولا يتزوجـون ممـن أحبوهـم، فـ «كثـير» الـذي هـام حبًّـا بعـزة عندمـا أرشـدته عـلى بـئر يسـقي منها جماله أنشـد فيهـا شـعرًا يصـف غرامـه بهـا لكـن العـرب لا يزوجون بناتهـم لمـن يلهـج بالشـعر فيهـن، فقـد رفضـوا «كثـير» وزوجوهـا لرجـل آخـر سـافر بهـا إلى بلد أخـرى، وظل كثـير في حزنـه ولوعتـه حتـى مـات، كذلـك «جميـل» بثينـة قابلهـا في مرابـع الإبـل وحدثـت بينهـما مشـادة كلاميـة انتهـت إلى الهيـام بينهـما، وعندمـا اشـتهر حبـه لهـا رفضـه أهلهـا وزوجوهـا لرجـل غريـب فهـام عـلى وجهـه في البـلاد ينشـد الشـعر.

ولا ننـسى في هـذا المقـام مجنـون ليـلى وهـو قيـس الملوحـي الـذي عشـق ليـلى العامريـة ابنـة عمـه ورفيقـة طفولتـه، أحبَّهـا مـن صغـر سـنه لكنـه أخطـأ خطيئـة الشـعر وأنشـد فيهـا أشـعاره مـما دفـع أباهـا

إلى رفضه وزواجها من رجل غيره أخذها بعيدًا عن الديار إلى الطائف فطار عقل قيس وهام على وجهه في الجبال يحدِّث نفسه كمجنون ويشدو بحب ليلى، ووصل به الجنون إلى حد أنه عاش في البرَية لا يأكل إلا العشب وينام مع الظباء إلى أن ألفته الوحوش وصارت لا تنفر منه وظل هكذا حتى مات بين الأحجار في الصحراء.

لم تنتهِ قصص الشعراء عند هذ الحد بل يوجد العديد منها مما لا يعد ولا يحصى، آمنت أنه قدر الشعراء أن تُعلَّق قلوبهم بأمنيات مستحيلة وتظل تنزف وتئن كأن دماءَ قلوبهم هي مداد أقلامهم وهي ما تجعلهم يستمرون في فعل الكتابة، لكن البوح خطيئة فهو يكشف عن ضعفنا أمام أنفسنا.. يفضح كم نحمل داخلنا من هشاشة تجعلنا نتحطم مع أول صدمة، سأغلق قلبي الآن سأغلقه على جرحي ووجعي وسأمضي في طريقي.

يأتي على الإنسان لحظات لا يميز فيها بين الموت والحياة لا يسعي إلى كلاهما ولا يريد كلاهما، هو فقط حي يأكل ويشرب وينام يرد على كلمات الآخرين بجمل مقتضبة بعد أن يرتدي قناع التجمل، هو فقط يعيش لأنه لم يحن دوره في الموت، فنكتشف أن من الوجع ما يفوق قدرتنا على الاحتمال.

الرسالة الأخيرة

انتهت سنوات الجامعة وعدت إلى جدران حجرتي في بيت أبي، أملأها منذ سنوات بتذكارات عمري اعتادت أمي أن تسميها «كراكيب»، وكلما همت بترتيب البيت ابتعدت عن هذه الحجرة وهي تردد بيأس "عايزة أرمي كل اللي فيها في الزبالة»، ولا تعرف أنها أشيائي الثمينة التي تبقيني على قيد الحياة (كتب، علب هدايا صغيرة من الأصدقاء، رسائل بيني وبين أصدقائي، ملابس طفولتي، كتب المدرسة، الألعاب التي كنت أصنعها لنفسي، مسودات كتاباتي، صوري وصور أصدقائي وأهلي) كل من عرفتهم في حياتي لي معهم ذكرى أحتفظ بها، هذه الكراكيب جزء مني عزيز على نفسي أشعر بالأمان وأنا بينها.

صرت الآن معلمة لغة عربية، لا يشغلني تدريس المادة العلمية بقدر ما يشغلني تنمية عقول الطلبة هؤلاء الأبرياء، يشبهون ورقة بيضاء تتشوق لقلم يخط فيها فإما يحوِّلها إلى لوحة فنية جميلة وإما يخط فيها بشكل عشوائي ويحولها إلى شيء مشوه، هم الأبرياء يسلمون عقولهم لأول من يضع بصمته عليها.. ينفس فيها من روحه؛ لذلك لن أتركهم للفراغ والفساد يشكِّل قناعاتهم.

أحاول مساعدهم في صنع هويتهم؛ فأحكي لهم قصص التاريخ المنسي وقصص البطولة التي لم تعد موجودة أو على الأقل لم يشاهدوها، أشعر بسعادة أمّ بوليدها عندما أجد طالب مشاغب يستمع لي ويجتهد في تعديل سلوكه من أجل أن ينال رضاي.

أعيش معهم الحياة التي لم أعشها، أسمع قصصهم وحكاياتهم التي تدهشني بساطتها لكنها تشغل عقولهم الصغيرة، تحتل تفكيرهم وبؤرة شعورهم، ويدهشهم رد فعلي بالحماس بسماع المزيد من القصص.

مـن بـراءة عيونهـم أكتـب القصائـد ومـن نبـع قلوبهـم أسـتمد الحيـاة، شـكلت منهـم فريقًـا مسرحيًّـا وأكتـب لهـم المسرحيـات التـي تناسـب شـخصية كل واحـد فيهـم، أختـار أكثرهـم شـقاوة للـدور الرئيـسي وأختـار أكثرهـم علـمًا لتنظيـم العمـل.

هـؤلاء الأطفـال لا يحتاجـون سـوى بيئـة مناسـبة للتعليـم لتظهـر عبقريتهـم وليقدمـوا الكثـير لهـذا العـالم، لكنـي لا أملـك شـيئًا أمنحـه لهـم سـوى الحـماس.. الثقـة في النفـس.. لا أملـك سـوى الأمـل في المسـتقبل، كـم أشـعر بالسـعادة بينهـم لكـن السـعادة لا تـدوم لمـن أدمنـوا الألم.

مـا حـدث أنـت تعرفينـه وأوجـع قلبـي.. تـرك شرخًا في روحـي لـن يلتئـم مهـما عشـت وأعيـش؛ فقـد مـات أبي، مـات السـند الـذي كنـت أسـتند عليـه.. أبي الونـس.. أبي القلـب الكبـير، رغـم بسـاطة تعليمـه كنـا نجلـس بالسـاعات نتحـاور ونتناقـش في أمـور الدنيـا والديـن ودائمًـا مـا يغلبنـي بحكمتـه وقدرتـه عـلى الإقنـاع.

أبي الـذي أعطـاني مفاتيـح الحريـة بعـد أن لقنـي الصـواب والخطـأ، ولم أفعـل أي شيء يغضبـه طـوال حياتـه حتـى مـا حـدث بينـي وبـين عـماد كان عـلى عِلـم بـه، صارحتـه لأننـي لم أقصـد إهانتـه أو ارتـكاب حماقـات، وكنـت أتعامـل مـع الموضـوع بجديـة لـولا مـا حـدث، ولم يعاقبنـي أو يعنّفنـي أو يلومنـي، قـال جملـة واحـدة "أثـق بـك" تلـك الثقـة التـي أتعبـت عمـري كلـه وجعلتنـي لا أفعـل شـيئًا لـن يرضيـه.

لم أكـن أعلـم أننـي أحبـه لهـذه الدرجـة إلا بعـد أن مـات؛ هكـذا نحـن لا نشـعر بقيمـة مـا نملـك إلا بعـد أن نفقـده، مـات أبي وانكـسر ظهـري، كان يحمـل حمـلاً ثقيـلاً لم نكـن نعلمـه؛ حمـلاً ثقيـلاً مـن تحمـل مسـئولية البيـت وحـل مشـاكل إخـوتي، ورعايـة أمـي التـي أصابهـا المـرض.

بعـد أن مـات آلـت مسـؤولية البيـت إليَّ؛ فجميـع إخـوتي تزوجـوا وغـادروا ولم يبـقَ سـواي أنـا وأمـي المريضـة، كنـت كمـن يغـرق في شِـبر مـاء لا أعـرف أيـن تُدفـع فواتـير المـاء والكهربـاء، ولا كيـف أشـتري الخبـز أو كيـف أقـف عنـد الجـزار وأُشـير إلى قطعـة

اللحـم التـي تحبهـا أمـي، ولا أعـرف كيـف أنتقـي حبـات الخضـار ولا أميـز بـين الفاكهـة الطازجـة وغيرهـا، ولا أعـرف كيـف أحافـظ عـلى البيـت مـن بعـده وأفتحـه للقادمـين كـما كان يفعـل.

ومـا يؤلمنـي ليـس موتـه بـل مرضـه الـذي أخفـاه عنـا؛ عـانى ربمـا منـذ سـنوات طويلـة مـن سرطـان الكبـد دون علمنـا، كان يعلـم بمرضـه لكنـه أخفـاه عنـا كي لا نتـألم، تحمَّـل ألمـه وحـده، كان يذهـب إلى الطبيـب وحـده، ويأخـذ دواءه وحـده ولا يقـصر في أي مهمـة مـن مهامـه. انـزوى عـلى وجعـه.. يخفـي روشـتاته ودواءه كي لا نصادفهـا في أي مـكان، يكتـم أنـين الألم ونـار قلقـه علينـا مـن بعـد موتـه.

عـانى كثـيراً ولم نكتشـف سـوى في آخـر عـشرة أيـام مـن حياتـه عندمـا خـارت قـواه وانهـار تحمُّلـه وسـقط بيننـا، لم نعـرف مـاذا نفعـل، حملنـاه وأسرعنـا إلى المستشـفى. وبعـد الكشـف والفحـص أدخلـوه حجـرة العنايـة المركـزة وأخبرونـا أننـا جئنـا متأخريـن؛ فهـي سـاعات ينازعهـا.

مـات أبي الرجـل الوحيـد في حيـاتي ولـن يكـون هنـاك آخـر مـن بعـده، علمـت أن الحيـاة مـن بعـده لا قيمـة لهـا، لـن أشـعر بطعـم الأشـياء كـما كانـت في المـاضي.. وأن الألـوان سـتصير كلهـا باهتـة.. وأن النـاس عـلى اختـلاف طبائعهـم سـيان.. عرفـت أننـي كنـت أسـتمد القـوة منـه والآن أصبحـت هشـة لدرجـة أن قليـلاً مـن الهـواء لـو مـرَّ مـن جـواري سـيتركني حطامًـا.

الآن لا رغبـة لـدي في أي شيء سـوى أن أقـدر عـلى رعايـة أمـي. وجـودك بجانبـي ياعـزة هـو الـذي يمـدني بالأمـل وخـبر حملـك الثـاني أعطـاني رغبـة في الحيـاة لأرى ابنـك وأحملـه بـين يـدي، أعـرف أنـك تحملـت تعبًـا يفـوق طاقتـك حتـى اسـتطعتِ أن تـرودي إيهـاب في محرابـك، كنـت أسـمع أمـي تقـول لأختـي الكبـيرة عندمـا تشـتكي مـن زوجهـا "ابنـك حسـب مـا تربيـه وجـوزك عـلى مـا تعوديـه» ترويـد الرجـال شيء صعـب يشـبه ترويـد الأسـود في حلبـة السـيرك، وهـذا الطفـل القـادم سـيغير مجـرى الحيـاة بينكـما سيسـعده بـك وبه.

وأنا لن أستطيع أن أبوح بحزني أمامك حتى تمر شهور الحمل بسلام، لن أبكي أمامك موت أبي وانكساري عليه، سأتصنع الابتسامة كلما رأيتك، لن أذكِّرك بالحزن الدفين داخلك على موت أمك، سأحفظ النكات كي ألقيها عليك ونضحك سويًّا حتى يأتي ابنك وتستردي عافيتك التي أنهكها الحمل.

بعدها سأعود إلى حجرتي أدفن ذكرياتي وسط الكراكيب والأشياء القديمة التي أحتفظ بها منذ طفولتي، سأضيف إليهم أشياء أبي؛ عطره، وشاحه، ساعة اليد، جرائده، جلبابه الأخير الذي يحمل رائحته، وفوقهم وحدتي وليلي الطويل الذي أقضيه في عدّ الساعات حتى أرى نور النهار بعدها أغمض عيني لأنام كأن أشعة الشمس تمنحني الأمان وتهدهدني على راحتها وتحكي لي الحكايات حتى أنعس دقائق معدودة وأنهض بعدها لأدور في رحى الحياة.. طلبات البيت.. أمي.. إخوتي وأبناؤهم.. عملي.. تلاميذي.. دوامة تبتلعني داخلها برغبة النسيان.

آدي اللي كان وآدي القدر وآدي المصير
نودع الماضي وحلمه الكبير
نودع الأفراح نودع الأشباح
راح اللي راح ماعادش فاضل كتير

إيه العمل في الوقت ده يا صديق
غير إننا عندافتراق الطريق
نبُص قدامناعلى شمس أحلامنا
نلقاها بتشق السحاب الغميق

صلاح جاهين

ربما لا يكون كتاب واحد قادرًا على تغيير العالم.. لكن الكتاب الجيد بحاجة إلى أن يُقرأ من قِبل الجميع.. ورويدًا رويدًا سيبعث الدفء في قلوب الناس.

إذا أحببت الكتاب ولامس فيك شيئًا، لا تجعله يتوقف عندك، رشحه لأصدقائك الذين يحبون القراءة.. فربما يغير بداخلهم شيئًا ما..!